٣٢٤٧

King Saud University 1957

Copyright © King Saud University

King Saud University 1957
Copyright © King Saud University

٢١٤
أ٠غ احياء علوم الدين ، جـ ٣ : ربع المهلكات ، تأليف محمد بن محمد
ابن محمد الغزالي (-٥٠٥ هـ) . بخط أحمد بن وجيه بن
محمد بن عبد الحليم (٠٠؟) الشافعي ، ٧٢٨ هـ .

٣٣٤٧ ٨٦ ق ٢٣ س ٢٦×١٨,٥ سم
نسخة قديمة ، خطها معتاد ، بأثنائها نقص ، متآكلة
الاطراف ، طبع .
الأعلام ٧ : ٢٤٧ ؛ نشرة دار الكتب المصرية ١ : ٢٤٤

١- اصول الدين أ- الغزالي ، محمد بن محمد -٥٠٥ هـ
ب- الناسخ جـ- تاريخ النسخ د- ربع المهلكات
هـ- المهلكات .

احيا علوم الدين

اونى ميتا فبكوني ورثوني حزنا
اتظنوني باني ميتكم لست ذا الميت والله انا

وهذا جسدي كان بيتي وقميصي زمنا
انا كنز وحجابي الطلسم من تراب قد تخلا للفنا
جواه صدف كان سجني فطرحت السجنا
انا عصفور وهذا قفصي طرت منه وبقي رهنا

٣٣٤٧

٦٢٢٤٧ / ٥
٩٩/١٧/٢١

مكتبة جامعة الرياض – قسم المخطوطات
اسم الكتاب احياء علوم الدين الرقم ٣٣٤٧
اسم المؤلف محمد بن محمد الغزالي
تاريخ النسخ ٧٢٨ هـ
عدد الاوراق ٢٨٦ ق
القياس ٢٦×١٧ سم
ملاحظات ٢١٤

٢٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب عجائب القلب وهو الكتاب الاول من ربع المهلكات

الحمد لله الذي تتحير دون ادراك جلاله القلوب والخواطر وتدهش في مبادي
اشراق انواره الاحداق والنواظر المطلع على خفيات السرائر العالم بمكنونات الضماير المستغني
في تدبير مملكته عن المشاور والموازر مقلب القلوب وغفار الذنوب وستار العيوب ومفرج الكروب
والصلاة على محمد سيد المرسلين وجامع شمل الدين وقاطع دابر الملحدين وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين
وسلم تسليما كثيرا اما بعد فشرف الانسان وفضيلته التي بها فاق جملة من اصناف
الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الاخرة
عدته وذخره وانما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله وهو
العامل لله وهو الساعي الى الله وهو المتقرب اليه وهو المكاشف بما عند الله ولديه وانما
الجوارح اتباع وخدم والات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال الملك للعبيد واستخدام الراعي للرعية
والصانع للالة والقلب هو المقبول عند الله اذا سلم من غير الله وهو المحجوب عن الله اذا صار
مستغرقا بغيره وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب والمعاقب وهو الذي يسعد بالقرب
من الله تعالى فيفلح اذا زكاه وهو الذي يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة
لله وانما ينتشر على الجوارح من العبادات انواره وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وانما الساري
الى الاعضاء من الفواحش اثاره وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه اذ كل
انا يرشح بما فيه وهو الذي اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف
ربه وهو الذي اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل
قلبه فهو بغيره اجهل واكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وانفسهم وقد حيل بينهم وبين انفسهم
وان الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بان يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته
وكيفية تقلبه بين اصبعين من اصابع الرحمن وانه كيف يهوي مرة الى اسفل السافلين
وينخفض الى افق الشياطين وكيف يرتفع اخرى الى اعلا عليين ويرتقي الى عالم الملائكة المقربين
ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزاين الملكوت عليه وفيه

نزع زيد

سودا فاذا هو نزع وتاب صقل وان عاد زيد فيها حتى تعلو القلب فهو الران وقد قال
صلى الله عليه وسلم قلب المومن اجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر اسود منكوس فطاعة الله
تعالى بمخالفة الشهوات مصقلات للقلب ومعاصيه مسودات له فمن اقبل على المعاصي
اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا اثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمراة
التي يتنفس فيها ثم تمسح فانها لا تخلوا عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم القلوب اربعة
قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المومن وقلب اسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب اغلف
مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل
البقلة يمدها الما الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاي المدتين غلبت
عليه حكم له بها وفي رواية ذهبت به وقد قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من
الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فاخبر ان جلا القلب وابصاره يحصل بالذكر وانه
لا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الاكبر
وهو الفوز بلقا الله تعالى بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة اعلم
ان محل العلم هو القلب اعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الاعضا وهي بالاضافة
الى حقايق المعلومات كالمراة بالاضافة الى صور المتلونات فكما ان للمتلون صورة ومثال تلك
الصورة ينطبع في المراة ويحصل بها فكذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة فينطبع
في مراة القلب ويتضح فيها وكما ان المراة غير وصور الاشخاص غير وحصول مثالها في المراة غير
فهي ثلاثة امور فالقلب وحقايق الاشيا وحصول نقش الحقايق في القلب وحضورها فيه فالعالم عبارة
عن القلب الذي فيه يحل مثال حقايق الاشيا والمعلوم عبارة عن حقايق الاشيا والعلم
عبارة عن حصول المثال في المراة وكما ان القبض مثلا يستدعي قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف
ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويسمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم
الى القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا لان
العلم عبارة عن وصول الحقيقة الى القلب كما ان السيف موجودا واليد موجودة
ولم يكن اسم القبض ولا حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد نعم القبض عبارة عن حصول

السيف بعينه لحد والعلوم بعينه لا تحصل في القلب فمن علم النار لم يحصل عين النار في
قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابق لصورتها فتمثيله بالمراة اولى لان عين الانسان
لا تحصل في المراة وانما يحصل مثال مطابق له فكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب
يسمى علما وكما ان المراة لا تنكشف فيها الصور لخمسة امور احدها نقصان صورتها كجوهر الحديد
قبل ان يدور ويشكل ويصقل والثاني لخبثه وصداه وكدورته وان كان تام الشكل
والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المراة والرابع
لحجاب مرسل بين المراة والصورة والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه
ان يحاذي بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مراة مستعدة لان ينجلي فيها حقيقة الحق في
الامور كلها وانما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الاسباب الخمسة اولها نقصان
في ذاته كقلب الصبي فانه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذي
تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمنع ظهور الحق فيه بقدر
ظلمته وتراكمه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا
اي حصل في قلبه كدورة لا يزول اثرها ابدا اذ غايته ان يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم يتقدم
السيئة لازداد لا محالة اشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد
القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا وهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليس
المراة التي تدنست ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق والاقبال على طاعة الله تعالى
والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا
فينا لنهدينهم سبلنا وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم والثالث ان يكون معدولا
به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب المطيع الصالح وان كان صافيا فانه ليس يتضح فيه جلية
الحق لانه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمراته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم
بتفصيل الطاعات البدنية او بتهيئة اسباب المعيشة ولا يصرف فكره الى التامل في
حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية فلا ينكشف له الا ما يتفكر فيه من دقائق
آفات الاعمال وخفايا عيوب النفس ان كان متفكرا فيها او مصالح المعيشة ان كان متفكرا
فيها

بمعرفة الله تعالى فيه نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة
اوصافه اصل الدين واساس طريق السالكين واذ فرغنا من الشطر الاول من هذا
الكتاب عن النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا ان
نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلوب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن
فلا بد ان نقدم عليه كتابين كتابا في شرح صفات القلب واخلاقه وكتابا في كيفية رياضة
القلب وتهذيب اخلاقه ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الان من شرح
عجائب القلب بطريق ضرب الامثال ما يقرب من الافهام فان التصريح بعجائبه واسراره
الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه اكثر الافهام وبالله التوفيق

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الاسامي

اعلم ان هذه اربعة اسامي تستعمل في هذه الابواب ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه
الاسامي واختلاف معانيها وحدود مسمياتها واكثر الاغاليط منشاها الجهل بمعنى هذه الاسامي
واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح من معاني هذه الاسامي ما يتعلق بغرضنا فمن ذلك
لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين احدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الايسر من الصدر
وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم اسود وهو منبع الروح ومعدنه ولسنا
نقصد الان شرح شكله وكيفيته فلا يتعلق به الاغراض الدينية وانما يتعلق به غرض الاطباء وهذا
القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن اذا اطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك فانه قطعة
لحم لا قدر لها وهو من عالم الملك والشهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الادميين
والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي
حقيقة الانسان وهي المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمطالب والمعاقب والمعاتب
ولهذه اللطيفة علاقة مع القلب الجسماني وقد تحيرت عقول اكثر الخلق في ادراك وجه علاقته
وان تعلقه به يضاهي تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات او تعلق المستعمل
للالة بالالة او تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين احدهما انه متعلق بعلوم المكاشفة
وليس غرضنا في هذا الكتاب الا علوم المعاملة والثاني ان تحقيقه يستدعي افشاء سر الروح
ولم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره ان يتكلم فيه والمقصود انا اذا

متعلقنا التعب في هذا الكتاب اردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر اوصافها واحوالها لا ذكر
حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها واحوالها ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها
اللفظ الثاني الروح وهو ايضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين احدهما جسم لطيف
منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضوارب الى ساير اجزا
وجريانه في البدن وفيضان انوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم منه على اعضائه
يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فانه لا ينتهي الى جز من البيت
الا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح مثاله السراج وسريان
شرح الروح
الروح وحركته في الباطن مثاله حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والاطبا
اذا اطلقوا الروح ارادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف انضجته حرارة القلب وليس من
غرضنا شرحه اذ المتعلق به غرض الاطبا الذين يعالجون الابدان فاما غرض اطبا
الدين المعالجين للقلوب حتى تنساق الى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه
الروح اصلا المعنى الثاني هي اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذي شرحناه
في احد معنى القلب وهو الذي اراده الله تعالى بقوله ويسالونك عن الروح قل الروح من امر
ربي وهو امر عجيب رباني يعجز اكثر العقول والافهام عن درك كنه حقيقته اللفظ الثالث
معنى النفس
النفس وهو ايضا مشترك بين معاني ويتعلق بغرضنا منه معنيان احدهما انه يراد
المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان على ما سياتي بيانه وهذا الاستعمال
هو الغالب على الصوفية فهم يريدون بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من
الانسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها واليه الاشارة بقوله
صلى الله عليه وسلم اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك المعنى الثاني
هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الانسان بالحقيقة وهي نفس الانسان وذاته
ولكنها توصف باوصاف مختلفة بحسب اختلاف احوالها فاذا سكنت تحت
الامر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس
المطمينة

المطمينة قال الله تعالى يا ايتها النفس المطمينة ارجعي الى ربك والنفس بالمعنى الاول
النفس
لا يتصور رجوعها الى الله فانها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان واذا لم يتم سكونها
ولكنها صارت مدافعة للنفس اللوامة لانها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاها
قال تعالى ولا اقسم بالنفس اللوامة وان تركت الاعتراض واذعنت واطاعت لمقتضى
الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الامارة بالسوء قال تعالى وما ابرئ نفسي
ان النفس لامارة بالسوء وقد يجوز ان يقال المراد بالامارة بالسوء هي النفس بالمعنى الاول
فاذن النفس بالمعنى الاول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لانها نفس الانسان
اي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وبساير المعلومات اللفظ الرابع العقل
معنى العقل
وهو ايضا مشترك لمعاني مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها
معنيان احدهما انه قد يطلق ويراد به العلم بحقايق الامور فيكون عبارة عن صفة
العلم الذي محله القلب والثاني انه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم وله في نفسه
وجود هو اصل قايم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل
قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الادراك اعني المدرك وهو
المراد بقوله صلى الله عليه وسلم اول ما خلق الله العقل فان العلم عرض لا يتصور ان يكون
اول مخلوق بل لا بد وان يكون المحل مخلوقا قبله او معه ولانه لا يمكن الخطاب معه وفي
الخبر انه قال له اقبل فاقبل وقال له ادبر فادبر الحديث واذن فقد انكشف لك ان معاني
هذه الاسامي موجودة وهو القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم
وهذه اربعة معاني يطلق عليها الالفاظ الاربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة
من الانسان والالفاظ الاربعة وكل لفظ اطلق لمعنيين واكثر العلما قد التبس عليهم اختلاف
هذه الالفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر
الروح وهذا خاطر النفس وهذا خاطر القلب وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الاسما
ولاجل كشف الغطا عن ذلك قدمنا شرح هذه المعاني وحيث ورد في القران والسنة لفظ
القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشيا وقد يكنى عنه

بالقلب الذي في الصدر لان بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة
خاصة فانها وان كانت متعلقة بساير البدن ومستعملة له ولكنها
تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الاول بالقلب وكانه محلها ومملكتها
وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر
بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ولا يظن به انه مثال القلب
يرى انه عرش الله وكرسيه فان ذلك محال بل اراد به انه مملكته
والمجرى الاول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة اليه كالعرش والكرسي
بالنسبة الى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه ايضا الا من
بعض الوجوه وشرح ذلك ايضا لا يليق بغرضنا فلنتجاوزه بيان
جنود القلب قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو ولله سبحانه وتعالى
في القلوب والارواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها جنود القلب
وتفصيل عددها الا هو ونحن الان نشير الى بعض جنود القلب وهو الذي
يتعلق بغرضنا وله جندان جند يرى بالابصار وجند لا يرى الا
بالبصاير وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والاعوان وهذا
معنى الجند فاما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والاذن
واللسان وساير الاعضا الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة
للقلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة
على طاعة القلب لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا امر العين
بالانفتاح انفتحت واذا امر الرجل بالحركة تحركت واذا امر اللسان
بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا ساير الاعضا وتسخر الاعضا والحواس
للقلب يشبه من وجه تسخر الملايكة لله تعالى فانهم جبلوا على الطاعة
لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون
ما يؤمرون وانما يفترقان في شي وهو ان الملايكة عالمة بطاعتها
وامتثالها

وامتثالها والاجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل
التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وانما افتقر القلب
الى هذه الجنود من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره الذي لاجله
خلق وهو السفر الى الله تعالى وقطع المنازل الى لقايه فلاجله خلقت
القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وانما
مركبه البدن وانما زاده العلم وانما الاسباب التي توصله الى الزاد
وتمكنه من التزود منه العمل الصالح وليس يمكن ان يصل العبد الى الله تعالى
ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الادنى لا بد من قطعه
للوصول الى المنزل الاقصى والدنيا مزرعة الاخرة وهي منزلة من منازل
الهدى وانما سميت دنيا لانها ادنى المنزلتين فاضطر الى ان يتزود
من هذا العالم والبدن مركبه الذي به يصل الى هذا العالم فافتقر الى
تعهد البدن وحفظه وانما يحفظ البدن بان يجلب اليه ما يوافقه من الغذا
وغيره وبان يدفع عنه ما ينافيه ويهلكه من اسباب الهلاك فافتقر لاجل
جلب الغذا الى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والاعضا الجالبة
للغذا فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج اليه وخلقت الاعضا التي هي
الات الشهوة وافتقر لدفع المهلكات الى جندين باطن وهو الغضب الذي به
يدفع المهلكات وينتقم من الاعدا وظاهر وهو اليد والرجل الذي به يعمل
بمقتضى الغضب وكمل ذلك بامور خارجة عن البدن كالاسلحة وغيرها
ثم المحتاج الى الغذا اذا لم يعرف الغذا لا ينفعه شهوة الغذا والفته
فافتقرت المعرفة الى جندين باطن وهو ادراك البصر والذوق والشم
والسمع واللمس وظاهر وهو العين والاذن والانف وغيرها وتفصيل
وجه الحاجة اليها ووجه الحكمة فيها يطول ولم نذكره ولا تحويه مجلدات
كثيرة وقد اشرنا الى طرف يسير منه في كتاب الشكر فليقتنع به مجمله

جنود القلب يحصرها ثلاثه اصناف صنف باعث ومستحث اما الى جلب
الموافق النافع كالشهوه واما الى دفع الضار المنافي كالغضب وقد يعبر عن
هذا الباعث بالاراده والثاني هو المحرك للاعضا الى تحصيل هذه المقاصد
ويعبر عن هذا الثاني بالقدره وهي جنود مبثوثه في ساير الاعضا لا
سيما العضلات منها والاوتار والثالث هو المدرك المتعرف للاشيا
كالجواسيس وهي قوه البصر والسمع والشم والذوق وغيرها وهي
مبثوثه في اعضا معينه ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحده
من هذه الجنود الباطنه جنود ظاهره وهي الاعضا المركبه من اللحم والشحم
والعصب والدم والعظم التي اعدت الات لهذه الجنود فان قوه البطش
انما تبطش بالاصابع وقوه البصر انما تدرك الشي بالعين وكذا ساير
القوى ولسنا نتكلم في الجنود الظاهره اعني الاعضا فانها من عالم الملك
والشهاده وانما نتكلم الان فيما ايدت به من جنود لم تروها وهذا الصنف
الثالث هو المدرك من هذه الجمله ينقسم الى ما اسكن المنازل الظاهره وهي الحواس
الخمس اعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس والى ما اسكن منازل باطنه
وهي تجاويف الدماغ وهي ايضا خمسه فان للانسان بعد رويه الشي يغمض عينيه
فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصوره معه بسبب شي يحفظه
وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك على بعض ثم يتذكر
ما نسيه ويعود اليه ثم يجمع معاني المحسوسات في الباطن حس مشترك
وتخييل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله تعالى قوه الحفظ والفكر والذكر
والتخييل لكان يخلوا الدماغ عنه كما يخلوا عنه اليد والرجل فتلك القوى
ايضا جنود باطنه واماكنها باطنه فهذه اقسام جنود القلب وشرح
ذلك بحيث يدركه فهم الضعفا يطول ومقصود مثل هذا الكتاب ان ينتفع
به الاقويا والفحول من العلما ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفا بضرب الامثله ليقرب
ذلك

الى افهامهم بيان امثله القلب مع جنوده الباطنه اعلم ان
جندي الغضب والشهوه قد ينقادان للقلب انقيادا تاما فيعينه ذلك على
طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده وقد يستعصيان
عليه استعصا بغي وتمرد حتى يملكانه ويستعبدانه وفي ذلك هلاكه وانقطاعه
عن سفره الذي به وصوله الى سعادة الابد وللقلب جند اخر وهو العلم
والحكمه والتفكر كما سياتي شرحه وحقه ان يستعين بهذا الجند فانه حزب
الله على الجندين الاخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانه
وسلط على نفسه جند الغضب والشهوه هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا
وذلك حال اكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخره لشهواتهم في استنباط الحيل
لقضا الشهوه وكان ينبغي ان تكون الشهوه مسخره لعقولهم فيما يفتقر العقل
اليه ونحن نقرب هذا الى فهمك بثلاثه امثله المثال الاول ان نقول مثل
نفس الانسان في بدنه واعني بالنفس اللطيفه المذكوره كمثل والي في مدينته
ومملكته فان البدن مملكه النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وقواه وجوارحه
بمنزله الصناع والعمله والقوه العقليه المفكره له كالمشير الناصح والوزير
العاقل والشهوه له كعبد سو يجلب الميره والطعام الى المدينه والغضب والحميه
له كصاحب الشرطه والعبد الجالب للميره كذاب مكار مخادع خبيث يتمثل بصوره
الناصح وتحت نصحه الشر الهايل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعه
الوزير الناصح في كل تدبير يدبره حتى لا يخلوا عن منازعته ومعارضته في
ساعه كما ان الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره
معرضا عن اشاره هذا العبد الخبيث بل مستدلا باشارته على ان الصواب
في نقيض رايه وادب صاحب شرطته واساسه لوزيره وجعله موتمرا له
ومسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وانصاره حتى يكون العبد
مسوسا لا سايسا ومامورا مدبرا لا اميرا مدبرا استقام امر بلده

وانتظم العدل بينهم فلذلك النفس متى استعانت بالعقل وادبت الحمية
العضبية وسلطها على الشهوه واستعانت باحداهما على الاخرى تاره
بان يقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوه واستدراجها وتاره
بقمع الشهوه وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضاها اعتدلت
قواه وحسنت اخلاقه ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى افرايت من
اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال تعالى
لمن نهى النفس عن الهوى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى وسياتي كيفية مجاهدة
هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس المثال الثاني
ان البدن كالمدينة والعقل اعني المدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من
الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده واعوانه واعضاوه كرعيته والنفس الامارة
بالسوء التي هي الشهوه والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في اهلاك رعيته فصار
بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه فهزمه وقهره على
حسب ما احبه اداعاد الى الحضره كما قال الله تعالى فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم
على القاعدين وان ضيع ثغره واهمل رعيته ذم اثره وانتقم منه عند لقا الله تعالى
فيقال له يوم القيامة يا راعي السو اكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة
ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك كما ورد في الخبر والى هذه المجاهدة للاشارة
بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر المثال
الثالث مثل العقل مثل فارس حاذق وفرسه مروضا وكلبه مودبا معلما
كان جديرا بالنجح ومتى كان هو في نفسه اخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا
فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليق
بان يعطب فضلا عن ان ينال ما طلب وانما خرق الفارس مثال الجهل للانسان وقلة
حكمته وكلال بصيرته وجماح فرسه مثال لغلبة الشهوه خصوصا غلبة
شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثال لغلبة الغضب واستيلائه وبيان

مقصد وشهوة وغضب الكلام فيه كان الغرض م

خاصيه قلب الانسان اعلم ان جمله ما ذكرناه قد انعم الله تعالى به على ساير
الحيوانات سوى الادمي اذ للحيوانات الشهوه والغضب والحواس الظاهره
والباطنه ايضا حتى ان الشاه ترى الذيب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب
منه فذلك الادراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الانسان ولاجله عظم بيان ادراك
شرفه واستاهل القرب من الله تعالى وهو راجع الى علم وارادة اما العلم فهو
العلم بالامور الدنيويه والاخرويه والحقايق العقليه فان هذه امور ورا المحسوسات
ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكليه الضروريه من خواص العقل اذ يحكم
الانسان بان الشخص الواحد لا يتصور ان يكون في مكانين في حالة واحده وهذا
حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على جميع الاشخاص
زايد على ما ادركه الحس واذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في
ساير النظريات اظهر واما الارادة فهو انه اذا ادرك بالعقل عاقبه الامر
وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق الى جهه المصلحه والى تعاطي اسبابها
والاراده لها وذلك غير اراده الشهوه واراده الحيوانات بل يكون على ضد الشهوه
فان الشهوه تنفر عن الفصد والحجامه والعاقل يريدها ويطلبها ويبذل المال
عليها والشهوه تميل الى لذايذ الاطعمه في المرض والعاقل يجد في نفسه زاجرا
عنها فليس ذلك زاجر الشهوه ولو خلق الله تعالى العقل المعرف لعواقب الامور
ولم يخلق هذا الباعث المحرك للاعضا على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضايعا
على التحقيق فاذن قد اختص قلب الانسان بعلوم وارادة ينفك عنها ساير الحيوانات
بل ينفك عنها الصبي في اول الفطره وانما يحدث ذلك فيه عند البلوغ واما الشهوه والغضب
والحواس الظاهره والباطنه فانها موجوده في حال الصبي ثم للصبي في حصول هذه
العلوم فيه درجتان احدها ان يشتمل قلبه على جمله العلوم الضروريه
الاوليه كالعلم باستحاله المستحيلات وجواز الجايزات الظاهره فيكون
العلوم النظريه فيه غير حاصله الا انها صارت ممكنه قريبه الامكان
والحصول

بيان والحصول ويكون حاله بالاضافه الى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابه الا
الدرجة الدواه والقلم والحروف المفرده دون المركبه فانه قد قارب الكتابه الثانيه
ان يحصل له العلوم المكتسبه بالتجارب والفكر ويكون كالمخزونه عنده فاذا شاء
رجع اليها وحاله حال الحاذق بالكتابه اذ يقال كاتب وان لم يكن مباشرا للكتابه
لقدرته عليها وهذه هي غايه درجه الانسانيه ولكن في هذه الدرجه مراتب لا
تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثره المعلومات وقلتها وشرف المعلومات وخستها
وبطريق تحصيلها اذ تحصل لبعض القلوب بالهام الهي على سبيل المبادله والمكاشفه
ولبعضها بتعلم واكتساب ثم قد يكون ذلك سريع الحصول وقد يكون بطي الحصول وفي
هذا المقام يتباين منازل العلما والحكما والاوليا والانبيا ودرجات الترقي فيه غير محصوره
اذ معلومات الله لا نهايه لها واقصى الرتب رتبه النبي الذي ينكشف له كل الحقايق او اكثرها من
غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهي في اسرع وقت وبهذه السعاده يقرب العبد
من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقه والصفه لا بالمكان والمسافه ومراقي هذه الدرجات
هي منازل السايرين الى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وانما يعرف كل سالك المنزل الذي
بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته
علما لكن قد يصدق به ايمانا بالغيب كما انا نومن بالنبوه والنبي ونصدق بوجوده ولكن
لا يعرف حقيقه النبوه الا النبي وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز
وما ينفتح له من العلوم الضروريه ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظريه
ولا يعرف عاقل ما انفتح على اوليا الله تعالى وانبيايه من مزايا لطفه ورحمته ما
يفتح الله للناس من رحمه فلا ممسك لها وهذه الرحمه مبذوله بحكم الجود والكرم
من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على احد ولكن انما تظهر في القلوب المتعرضه
لنفحات رحمه الله كما قال عليه السلام ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا
فتعرضوا لها والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته عن الخبث والكدوره
الحاصله من الاخلاق المذمومه كما سياتي بيانه والى هذا الجود اشار

بقوله عليه السلام ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب
له وبقوله حكاية عن ربه عز وجل لقد طال شوق الابرار الى لقائي واني
الى لقائهم اشد شوقا وبقوله من تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعا
وكل ذلك اشارة الى ان انوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم
تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ولكن تحتجب لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب
فان القلوب كالاواني فما دامت ممتلاة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة
بغير الله لا يدخلها المعرفة بجلال الله تعالى واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لولا ان الشياطين
يحومون على قلوب بني ادم لنظروا الى ملكوت السما ومن هذه الجملة يتبين ان خاصية الانسان العلم
والحكمة واشرف انواع العلم هو العلم بالله وصفاته وافعاله فيه كمال الانسان وفي كماله سعادته
وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الا
نسان وخاصيته التي لاجلها خلق وكما ان الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية
الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى حضيض
رتبة الحمار فكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس في امور ويفارقه في امور هي خاصيته وتلك الخاصية
من صفات الملائكة المقربين من الله تعالى والانسان على رتبة بين البهائم والملائكة فان الانسان من حيث
يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة
المنقوشة على الحائط وانما خاصيته معرفة حقائق الاشيا فمن استعمل جميع اعضائه وقواه على وجه
الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بان يلتحق بهم وجدير بان يسمى ملكا
وربانيا كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته الى اتباع اللذات البدنية ياكل كما ياكل
الانعام فقد انحط الى حضيض افق البهائم فيصير اما غمرا كثور واما شرها كخنزير واما ضرعا ككلب
او حقودا كجمل او متكبرا كنمر او ذا روغان كثعلب او يجمع ذلك كله كشيطان مريد وما من
عضو من الاعضا ولا حاسة من الحواس الا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول الى
الله تعالى كما سياتي بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز
ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة السعادة في ذلك ان يجعل لقاء الله تعالى مقصده

والدار

والدار الاخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه والاعضاء خدمه فليستقر هو اعني
المدرك من الانسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوة الخيالية المودعة
في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده اذ تجتمع اخبار المحسوسات عنده ويجري القوة
الحافظة التي مسكنها موخر الدماغ مجرى خازنه ويجري اللسان مجرى ترجمانه ويجري
الاعضا المتحركة مجرى كتابه ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيتوكل كل واحد
باخبار صنف من الاصناف فيتوكل العين بعالم الالوان والسمع بعالم الاصوات
والشم بعالم الاراييح وكذلك سائرها فانها اصحاب اخبار يلتقطونها من هذه العوالم
ويؤدونها الى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد الى الخازن وهي
الحافظة ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس منها ما يحتاج اليه في تدبير مملكته واتمام سفره الذي
هو بصدده وقمع عدوه الذي هو مبتلى به ودفع قواطع الطريق عليه فاذا فعل ذلك كان موفقا
سعيدا شاكرا نعمة الله واذا عطل هذه الجملة او استعملها لكن في مراعاة اعدائه وهي
الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة او في عمارة طريقه دون منزله اذ الدنيا
طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الاخرة كان مخذولا شقيا كافرا لنعمة
الله تعالى مضيعا لجنود الله ناصرا لاعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والابعاد
في المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك والى المثال الذي ضربناه اشار كعب الاحبار قال
دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت الانسان عيناه هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان
ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب ان لله تعالى في ارضه
انية وهي القلوب فاحبها اليه ارقها واصفاها واصلبها ثم فسره فقال اصلبها في الدين
واصفاها في اليقين وارقها على الاخوان وهو اشارة الى قوله تعالى اشداء على الكفار
رحماء بينهم وقوله مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال ابي بن كعب معناه مثل نور المومن
وقلبه وقوله او كظلمات في بحر لجي مثل قلب المنافق وقال زيد ابن اسلم في لوح محفوظ
هو قلب المومن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه امثلة القلب

بيان مجامع اوصاف القلب ومثاله اعلم ان الانسان قد اصطحب في
تركيبه وخلقته اربع شوايب فلذلك اجتمعت عليه اربعة انواع من الاوصاف
وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث
تسلط عليه الغضب يتعاطى افعال السباع من العداوة والتهجم على الناس
بالضرب والشتم ومن تسلط عليه الشهوة يتعاطى افعال البهايم من الشره
والحرص والشبق وغيره ومن حيث انه في نفسه امر رباني كما قال الله تعالى
قل الروح من امر ربي فانه يدعي لنفسه الربوبية ويحب الاستيلا والاستعلا
والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالربانية والانسلال عن
ربقة العبودية والتواضع ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم
والمعرفة والاحاطة بحقايق الامور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا قرف
بالجهل والاحاطة بجميع الحقايق والاستيلا بالقهر على جميع الخلايق من اوصاف
الربوبية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص من البهايم بالتمييز مع
مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل
التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل الى الاغراض بالمكر والحيلة والخداع
ويظهر الشر في معرض الخير وهذه اخلاق الشياطين وكل انسان فيه شوب
من هذه الاصول الاربعة اعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل
ذلك مجموع في القلب فكان المجموع في اهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم والخنزير
هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه
والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة
واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن
الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره
الى الفحشا والمنكر والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذا والشيطان لا يزال
يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري احدهما بالاخر ويحسن لهما ما هما مجبولان
عليه

عليه والحكيم الذي هو مثال العقل مامور بان يدفع كيد الشيطان ومكره بان يكشف
عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وان يكسر شره هذا الخنزير
بتسليط الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل
الكل مقهورا تحت سياسته فان فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الامر وظهر العدل في مملكة البدن
وجرى الكل على الصراط المستقيم وان عجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال في استنباط
الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دايما في عبادة الكلب والخنزير
وهذا حال اكثر الناس مهما كان اكثر همهم البطن والفرج ومنافسة الاعدا والعجب انه ينكر
على عبدة الاصنام عبادتهم الحجارة ولو كشف الغطا عنه وكوشف بحقيقة حاله كما يمثل
للمكاشفين اما في النوم او في اليقظة لراى نفسه ماثلا بين يدي خنزير ساجدا له مرة وراكعا
اخرى ومنتظرا لاشارته وامره فمهما هاج الخنزير لطلب شي من شهوته انبعث على الفور
في خدمته واحضار شهوته او لراى نفسه ماثلا بين يدي كلب عقور عابدا له مطيعا لما
يقتضيه ويلتمسه مدققا الفكر في حيل الوصول الى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه
فانه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد
الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه
وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى ان انصف نفسه الا ساعيا طول النهار في عبادة
هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا
اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلا وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة صفات
تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له اما طاعة خنزير الشهوة
فيصدر منها الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والريا والهتكة والمجانة والعبث والحرص
والجشع والملق والحسد والشماتة وغيرها واما طاعة الغضب فينتشر منها الى القلب
صفة التهور والنذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزا
والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم والغضب يحصل منها صفة
المكر والخداع والحيلة والدها والجربزة والتلبيس والتضريب والغش والخب وامثالها

ولو علس الامور وقهر بتبع تحت سياسة الصفة الربانية لاستغرق القلب من الصفات
الربانية العلم والحكمة والاحاطة بحقايق الاشيا ومعرفة الامور على ما هي عليه والاستيلا
على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق بكمال جلاله والاستغنا عن
عبادة الشهوة والغضب ولانتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال
صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن
الهيئة والحيا والظرف والمساعدة وامثالها وتحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها
الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال
والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها والقلب في حكم مراة وهذه الشعثة
هذه الامور المؤثرة فيه وهذه الاثار على التوالي واصلة الى القلب اما الاثار المحمودة التي
ذكرناها فانها تزيد مراة القلب جلاء واشراقا ونورا وضيا حتى تتلالا فيه جلاية الحق وينكشف
فيه حقيقة الامر المطلوب في الدين والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اذا
اراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه وبقوله من كان له واعظ من قلبه كان عليه من الله من قلبه
حافظ وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى الا بذكر الله تطمين القلوب واما
الاثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مراة القلب ولا تزال يتراكم عليه مرة
بعد اخرى الى ان يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين
قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال تعالى ان لو نشا اصبناهم بذنوبهم ونطبع
على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع والطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى
فقال واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله ويعلمكم الله ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلب
وعند ذلك يعمى القلب عن ادراك الحق وصلاح الدين ويستهين بالاخرة ويستعظم امر
الدنيا ويصير مقصور الهم عليها فاذا قرع سمعه امر الاخرة وما فيها من الاخطار دخل
من اذن وخرج من اخرى ولم يستقر في القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك اولئك الذين يئسوا
من الاخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق
به القران والسنة قال ميمون بن مهران اذا اذنب العبد ذنبا نكتت في قلبه نكتة
سودا

[illegible] ادم [illegible] فرد الغضب [illegible] وكـ[illegible]
[illegible] يعجلك احظانه [illegible] من مهلك لبنيا ولا انه [illegible] اعتذارا وكان [illegible]
ومعه تار اذ الشيطان فطلب منه فلم يستطع فجا حتى بادا فقال يا فتح فلم يجبه فقال افتح
فاني ان ذهبت خرجت فلم [illegible] بعث اليه فقال ويلك افتح فاني [illegible] قال [illegible] لئن كنت المسيح 11
فما اصنع بك البر [illegible] العبادة والاجتهاد وعدتنا القيامة فلو جئت اليوم بجرم لم نقبله
قال فقال له انه هو الشيطان جئت اضلك فلم استطع [illegible] لتسئلني عما شئت فاخبرك قال ما
اريد ان اسالك عن شي قال فولى مدبرا فقال الراهب الا تسمع قال بلى قال اخبرني اي اخلاق بني ادم
اعون لك عليهم قال الحدة ان الرجل اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الاكرة وقال ع
الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الحكما ان الحمق الحلم [illegible] وقال الغضب وقد [illegible]
استغنى عن الحلم الحلم زين ومنفعة والحمق شين ومضرة [illegible] الحمق جوا
وقال ابليس ان اعجزني ابن ادم فلن يعجزوني في ثلاث اذا سكر احدهم اخذنا بخزامته فقدناه ٥
حيث شينا وعمل لنا بما احببنا واذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم [illegible]
بما لا يقدر عليه وقيل لحكيم ما املك فلانا لنفسه قال اذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه
الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم اياك والغضب فانه يصيرك الى ذل الاعتذار
وقال ابن مسعود رضي الله عنه انظروا الى حلم الرجل عند غضبه و[illegible] عند طمعه وما علمك
بحلمه اذا لم يغضب وما علمك بامانته اذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
الى عامله لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك
فاخرجه واقض عليه على قدر ذنبه وان رجلا قال لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه [illegible]
عمر طويلا ثم قال له اردت ان يستفزني الشيطان بعز السلطان فانال منك اليوم ما تناله
مني غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحي في
التنانير المسجورة فاقل الناس غضبا اعقلهم فان كان للدنيا كان مكرا ودهاء وان كان للاخرة
كان علما وحلما وقيل الغضب عدو العقل الغضب غول العقل وكان عمر رضي الله عنه
يقول في خطبته افلح منكم من حفظ من الهوى والطمع والغضب وقال بعضهم من اطاع

...وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وايمان في
يقين وعلم في حلم وكيس في رفق واعطا في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة واحسان في قدرة وصبر في
شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه
ولا تقصر به نيته فينصر المظلوم ويرحم الضعيف لا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر يغفر اذا ظلم
ويعفو عن الجاهل نفسه منه في عنا والناس معه في رخا ❊ وقيل لابن المبارك رضي الله عنه اجمع لنا
حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب ❊ وقال نبي من الانبيا عليهم السلام من يتكفل لي ان لا يغضب
يكون معي في درجتي ويكون خليفتي فقال شاب انا ثم اعاد فقال الشاب انا اوفي بذلك فلما مات
كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي بهذا الاسم لانه تكفل بالغضب الا يغضب ووفى به
صدر منه التكفل بعنه اركان الغضب والشهوة والحزن والطمع ❊ **بيان حقيقة**
الغضب اعلم ان الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموت باسباب في
داخل بدنه واسباب خارجة عنه انعم عليه بما يحميه الفساد ويدفع عنه الهلاك الى اجل معلوم
اما الاسباب الداخلة فهو انه ركبه من رطوبة وحرارة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة
فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير اجزاوها بخارا يتصاعد منها فلو لم
تتصل بالرطوبة مدد من الغذا يجبر ما انحل وتبخر من اجزائها لفسد الحيوان فخلق الله الغذا
الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذا كالموكل به في جبر ما
انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك له حافظا من الهلاك بهذا السبب واما الاسباب الخارجة
التي يتعرض لها الانسان فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها فافتقر الى قوة
وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله الغضب من النار وغرزه في الانسان
وعجنه بطينته فمهما قصد في غرض من اغراضه اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانا
يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى اعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع
الما الذي يغلي في القدر فلذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكي
لون ما وراها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها وانما ينبسط الدم اذا غضب على
من دونه واستشعر القدرة عليه فاذا صدر الغضب على من هو فوقه وكان معه ياس من
الانتقام تولد

تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزنا ولذلك
على نظير يشك في الانتقام منه تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر
وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام وانما تتوجه
هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها الانتقام 17
والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به ثم الناس في هذه القوة على درجات
ثلاث في اول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال اما التفريط فبفقد هذه القوة
او ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب
فلم يغضب فهو حمار فمن فقد هذه القوة وهي قوة الحمية والغضب اصلا فهو ناقص جدا وقد وصف
الله اصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال تعالى اشدا على الكفار ❊ وقال تعالى لنبيه عليه السلام
جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ❊ وانما الغلظة والشدة من اثار قوة الحمية وهو الغضب
واما الافراط فهو ان تغلب عليه هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعتهما
ولا يبقى للمرء معه بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر وسبب غلبته امور
غريزية وامور اعتيادية فرب انسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كان
صورته بالفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لان الغضب من النار كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم وانما برودة المزاج هي التي تطفئه وتكسر سورته واما الاسباب
الاعتيادية فهي ان يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة
ورجولية فيقول الواحد منهم انا الذي لا اصبر على المحال ولا احتمل من احد امرا ومعناه لا عقل لي
ولا حلم ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه
بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها اعمت
صاحبها واصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع ثم تزيده الموعظة غضبا وان اراد
ان يستضي بنور عقله ويراجع نفسه لم يقدر عليه اذ ينطفي نور العقل وينمحي في الحال بد خان
الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب
دخان الى الدماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى الى معادن الحس فتظلم
عينه

عليه بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار فاسودّ
[illegible] مستقره وامتلا بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانطفا او انمحى نوره فلا تثبت
فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ولا يقدر على اطفايه لا من داخل ولا من خارج بل
ينبغي ان يصبر الى ان يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما
تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في
الكهف فيتشقق وينهد اعاليه على اسافله وذلك لابطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة
الجامعة لاجزايه فهكذا حال القلب مع الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الامواج عند
اضطراب رياح في لجة البحر احسن حالا وارجى سلامة من النفس المضطربة غيظا اذ في السفينة
من يحتال لتسكينها وتدبيرها واما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته اذ اعماه
الغضب واصمه ومن [illegible] الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الاطراف
وخروج الافعال [illegible] والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشداق
وتحمر الاحداق [illegible] الخلقة ولو راى الغضبان قبح صورته في غضبه لسكن غضبه حيا من قبح
صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه اعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن فهذا اثره
في الجسد واما اثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش وقبيح الكلام الذي يستحيي منه ذوو
العقول ويستحيي منه قايله عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ واما اثره
على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه
المغضوب عليه او فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فيمزق ثوب نفسه
ويلطم وجهه وقد يضرب بيده على الارض ويعدو عدو السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط
صريعا ولا يطيق النهوض لشدة الغضب ويعتريه مثل الغشية وربما يكسر انية بيته ويرمي
الطعام اذا غضب عليه ويضرب الحيوانات ويتعاطى افعال المجانين فيشتم الدابة والجماد
ويخاطبه كانه يخاطب عاقلا حتى ربما رفسته دابة فيقابلها بذلك واما اثره في القلب
مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السو والشماتة بالمساات والحزن بالسرور
والعزم على افشا السر وهتك الستر والاستهزا وغير ذلك من القبايح فهذه ثمرة الغضب
المفرط واما

ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الانفة مما يونف منه من التعرض للحرم [illegible]
واحتمال الذل من الاخسا وصغر النفس وذلك ايضا مذموم اذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم
وذلك خنوثة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سعدا لغيور وانا اغير منه والله اغير مني
وانما خلقت الغيرة لحفظ الانساب ولو تسامح الناس في ذلك لاختلطت الانساب ولذلك
قيل ان كل امة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسايها ومن ضعف الغضب
الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم خير امتي احداوها يعني في الدين
قال الله تعالى ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه اذ لا تتم الرياضة
الا بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الدنية ففقد الغضب
مذموم وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفي
حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو
الوسط الذي وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله خير الامور اوساطها فمن مال غضبه الى الفتور حتى
احس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي
ان يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى ارتكاب الفواحش
فينبغي ان يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو
الصراط المستقيم وهو ادق من الشعر واحد من السيف فان عجز عنه فليطلب القرب منه
قال الله تعالى ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النسا ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها
كالمعلقة فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغي ان ياتي بالشر كله ولكن بعض الشر
اهون من بعض وبعض الخير ارفع من بعض

بيان ان الغضب هل يمكن إزالة أصله

بالرياضة ام لا اعلم انه ظن ظانون انه يتصور محو الغضب بالكلية وزعموا ان الرياضة اليه تتوجه
واياه تقصد وظن اخرون انه اصلا لا يقبل العلاج وهذا ظن من يظن ان الخلق كالخلق كلاهما
لا يقبل التغيير وكلا الراين ضعيف بل الحق فيه ما نذكره وهو انه ما بقي الانسان يحب شيا ويكره
شيا فلا يخلو عن الغضب والغيظ وما دام يوافقه شي ويخالفه اخر فلا بد ان يحب ما يوافقه
ويكره ما يخالفه من الغضب يتبع ذلك فانه مهما اخذ منه محبوبه غضب لا محالة واذا قصد
بمكروه غضب

اولها

لا[...] الانسان ينقسم ثلثة اقسام آ ما هو ضروري في حق الكافة وهو القوت والملبس
والمسكن وصحة بدنه فمن قصد بدنه بضرب او جرح لابد ان يغضب وكذلك لو سرق ثوبه الذي يستر عورته
او اخرج من داره الذي هي مسكنه فهذه ضرورات لا يخلو الانسان عن كراهة زوالها وعن غيظ على من
يتعرض لها ب ما ليس ضروريا لاحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب فان هذه
امور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الامور حتى صار الذهب والفضة محبوبين في انفسهما فيكنزان
ويغضب على من سرقهما وان كان مستغنيا عنهما في القوت وهذا الجنس مما يتصور ان ينفك الانسان
عن اصل الغيظ عليه فاذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز ان لا يغضب اذ يجوز ان يكون
بصيرا بامور الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب باخذها فانه لا يحب وجودها ولو احب وجودها
لغضب بالضرورة على اخذها واكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدر
في المجالس والمباهاة بالعلم فمن غلب عليه هذا الحب فهو لا محالة يغضب اذا زاحمه مزاحم على التصدر
في المحافل وان لم يحب ذلك وجلس في صف النعال لم يغضب اذا جلس غيره فوقه وهذه العادات
الرديئة هي التي اكثرت محاب الناس ومكارهه فاكثرت غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات
اكثر كان صاحبها احط رتبة وانقص لان الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص والجاهل ابدا
جهده ان يزيد في شهواته وهو لا يدري انه مستكثر من اسباب الغم والحزن حتى ينتهي بعض الجهال
بالعادة الردية ومخالطة قرناء السوء الى انه يغضب لو قيل له انه لا يحسن اللعب بالحمام واللعب بالشطرنج
ولا يقدر على شرب الخمر الكثير ونحوها من الرذائل فالغضب من هذا الجنس ليس بضروري لان حبه الثالث
ليس بضروري ٣ ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون بعض كالكتاب مثلا للعالم فانه مضطر
اليه فيحبه فيغضب على من حرقه او غرقه وكذلك ادوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه
التوصل الى القوت الا بها فانما هي وسيلة الى الضروري والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا وهذا يختلف
بالاشخاص وانما الحب الضروري ما اشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله من اصبح امنا في سربه معافى
في بدنه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومن كان بصيرا بحقائق الامور وسلمت
له هذه الثلاث فيتصور ان لا يغضب في غيرها فهذه ثلثة اقسام فلنذكر غاية الرياضة فيه
لينعدم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على ان لا يطيعه الغضب ولا يستعمله في الظاهر الا على حد

حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والا[...]
والاحتمال خلقا راسخا فاما قمع اصل الغيظ من القلب فذلك مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر
سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن وينتهي ضعفه الى ان لا يظهر اثره في الوجه ولكن
ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث ايضا لان ما صار ضروريا في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ
١٤ استغناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التالم بالصبر
عليه واما القسم الثاني فيمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن الغضب عليه اذ يمكن اخراج
حبه من القلب وذلك بان يعلم الانسان ان وطنه القبر ومستقره الاخرة وان الدنيا معبر يعبر
عليها ويتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك فهو وبال عليه في وطنه ومستقره فيزهد في
الدنيا ويمحو حبها عن القلب ولو كان للانسان كلب لا يحبه لم يغضب اذا ضربه غيره فالغضب
تبع للحب فالرياضة في هذا قد تنتهي الى قمع اصل الغضب وهو نادر جدا وقد تنتهي الى
المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو اهون فان قلت الضروري من القسم الاول
التالم بفوات المحتاج اليه دون الغضب فمن له شاة مثلا وهي قوته فماتت لم يغضب على
احد وان كان يحصل معه كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فالانسان يتالم بالفصد
ولا يغضب على الفصاد فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الاشياء كلها بيد الله لم يغضب على احد
من خلق الله اذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب عنقه
لم يغضب على القلم فلا يغضب على من ذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها اذ
يرى الموت والذبح من الله فيندفع الغضب بقوة التوحيد وبحسن الظن بالله تعالى وذلك
ان يرى ان الكل من الله وان الله لا يقدر الا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه
وقتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفاصد لانه يرى ان الخيرة في الفصد فنقول هذا على هذا
الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد انما تكون كالبرق الخاطف تغلب في احوال
مختطفة لا تدوم ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو
تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه
حتى قال اللهم انا بشر اغضب كما يغضب البشر فايما مسلم سببته او لعنته او ضربته فاجعلها

...حتى صار ... ضربة تؤتيه بها البكر يوم القيامة وقال عبد الله بن عمرو يا رسول الله أكتب عنك كل ما
تقوله في الغضب والرضا فقال اكتبه فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا الحق وأشار إلى لسانه فلم يقل
إني لا أغضب ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق أي لا أعمل بموجب الغضب وغضبت عائشة
رضي الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لك جاءك شيطانك فقالت وما لك شيطان قال بلى ولكن
دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير فلم يقل لا شيطان لي وأراد شيطان الغضب لكن
قال لا يحملني على الشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يقم لغضبه
شيء حتى ينتصر له وكل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له منها فإنما يغضب
لأنه لا يمكن الانفكاك عنه نعم قد يفقد أصل الغيظ فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً
بضروري أهم منه فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فإن استغراق القلب
ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه وهذا كما أن سلمان لما شتم قال إن خفت موازيني
فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول فلما كان همه مصروفاً إلى الآخرة
فلم يتأثر قلبه بالشتم وشتم رجل الربيع بن خثيم فقال يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة
عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبا بكر الصديق
رضي الله عنه فقال ما ستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله
حق تقاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه
بعين النقصان وذلك لجلالة قدره وقالت امرأة لمالك بن دينار يا مرائي فقال ما عرفني غيرك فكأنه
كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما
نسب إليه وسب رجل الشعبي فقال له إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر
الله لك فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ويحتمل
أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم فإن اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب
عند فوات بعض المحاب فإذاً يتصور فقد الغيظ إما باشتغال القلب عنه بمهم أو بغلبة
نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفئ شدة حبه لله
غيظه وذلك غير محال في أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب

محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا ... حب
الدنيا من قلبه تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه يمكن ضعفه فيضعف الغضب بسببه
ويهون دفعه

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها
وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسبابها وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام أي شيء أشد قال غضب الله قال
فما يقرب من غضب الله قال أن تغضب والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمزح والهزء
والتعيير والمماراة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهي بأجمعها أخلاق رديئة
مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالتها بأضدادها فينبغي أن تميت
الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفة نفسك كما سيأتي في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنك من جنس
غيرك إذ الناس يجمعهم في النسب أب واحد وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد وإنما
الفخر بالفضائل والفخر والعجب أكبر الرذائل وهما رأسها وأصلها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم
تفتخر وأنت من جنس غيرك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة وأما المزح فتزيله بالتشاغل
بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفتها وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الأخلاق
الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس
وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب
وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً
عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة
وتحمل مشقة وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها
ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس
فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت عن الغضب الذي يتولد
منها ومن أشد البواعث للغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية
وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه
وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس
مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب في القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس

وشجاعة جهل ... بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها ودليل انه لضعف
النفس ان المريض اسرع غضبا من الصحيح والمراة والصبي اسرع غضبا من الرجال والشيخ الضعيف اسرع
غضبا من الكهل وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة اسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرجل يغضب
لشهوته اذا فاتته اللقمة ولبخله اذا فاتته الحبة حتى يغضب على اهله واصحابه بل القوي من يملك
نفسه عند الغضب كما قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند
الغضب بل ينبغي ان يعالج هذا الجاهل بان تتلى عليه حكايات اهل الحلم والعفو وما استحسن عنهم من
كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الانبيا والعلما والحكما واكابر الملوك الفضلا وضد ذلك منقول
عن الاتراك والاكراد والجهلة والاغبياء الذين لا عقل لهم ولا فضل عندهم

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

اعلم ان ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لاسبابه حتى لا
يهيج فاذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه الى العمل به على الوجه المذموم
وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل اما العلم فهو ستة امور ١ ان يتفكر في الاخبار
التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه فتمنعه شدة الحرص
على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام ويطفى غيظه قال مالك بن اوس بن الحدثان غضب عمر رضي الله عنه
على رجل وامر بضربه فقلت يا امير المؤمنين خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين فكان عمر
يكرر الاية ويتاملها وكان وقافا عند كتاب الله مهما تليت عليه كثير التدبر فيه فعفا عن الرجل
وامر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بضرب رجل ثم قرا والكاظمين الغيظ فقال للغلام خل عنه ٢
ان يخوف نفسه بعقاب الله تعالى بان يقول قدرة الله على اعظم من قدرتي على هذا الشخص فلو
امضيت غضبي عليه لم آمن ان يمضي الله على غضبه يوم القيامة احوج ما اكون الى العفو وقد
قال في بعض كتبه يا ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق
وبعث النبي صلى الله عليه وسلم وصيفا في حاجة فابطا فلما جا قال له لولا القصاص لاوجعتك يعني
القصاص في الاخرة وقيل ما كان ملك في بني اسرائيل الا معه حكيم اذا غضب اعطاه صحيفة فيها
ارحم المسكين واخش الموت واذكر الاخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه ٣ ان يحذر نفسه
عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو لمقابلته والسعي في هدم اغراضه والشماتة بمصائبه

وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا ان كان لا يخاف الاخرة وهذا يرجع
الى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من اعمال الاخرة ولا ثواب عليه لانه متردد على حظوظه
العاجلة يقدم بعضها على بعض الا ان يكون محذوره ان يتشوش عليه في الدنيا فراغه
للعلم والعمل وما يعينه على الاخرة فيكون حينئذ مثابا عليه ٤ ان يتفكر في قبح صورته
عند غضبه بان يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه
للكلب الضاري والسبع العادي ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للانبيا والعلما
والحكما ويخير نفسه بين ان يتشبه بالكلاب والسباع واراذل الناس وبين ان يتشبه بالانبيا
والعلما في عاداتهم لتميل نفسه الى حب الاقتدا بهم ان كان قد بقي معه مسكة من عقل ٥
ان يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وان يكون له سبب
مثل قول الشيطان له ان هذا الاحتمال يحمل منك على صغر النفس والذلة والمهانة وتصير
به حقيرا في اعين الناس فليقل لنفسه ما اعجب امرك يا نفس تانفين الان من الاحتمال ولا تانفين
غدا من خزي يوم القيامة اذا اخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين ان تصغري عند الناس
ولا تحذرين من ان تصغري عند الله والملائكة والنبيين فمهما كظم الغيظ فينبغي ان يكظمه لله
فذلك يعظمه عند الله فما له وللناس وذل من ظلمه يوم القيامة اشد من ذله الان افلا يحب ان
يكون هو القائم اذا نودي يوم القيامة ليقم من اجره على الله فلا يقوم الا من عفا فهذا
وامثاله من معارف الايمان ينبغي ان يكرره على قلبه ٦ ان يعلم ان غضبه من تعجبه من
جريان الشي على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادي اولى من مراد الله
ويوشك ان يكون غضب الله عليه اعظم من غضبه واما العمل فان تقول بلسانك
اعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقال عند الغيظ وكان عليه السلام
اذا غضبت عائشة رضي الله عنها ياخذ بانفها ويقول يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي
واذهب غيظ قلبي واجرني من مضلات الفتن فيستحب ان تقول ذلك فان لم يزل بذلك
فاجلس ان كنت قائما واضطجع ان كنت جالسا واقرب من الارض التي خلقت منها
لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فان سبب الغضب الحرارة

وسبب الحرارة الحركة. وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الغضب جمرة توقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس وإن كان جالسا فليضطجع فإن لم يزل بذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفيها إلا الماء فقد قال عليه السلام إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإن الغضب من النار وفي رواية إن الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء وقال عليه السلام إذا غضبت فاسكت. وكان عليه السلام إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه. وقال صلى الله عليه وسلم ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئا فليلصق خده بالأرض كأنه إشارة إلى السجود وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر النفس به الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب. وغضب يوما عمر فدعا بماء فاستنشق وقال إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب. وقال عروة بن محمد لما وليت اليمن قال لي أبي إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم أعظم خالقهما. وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول إذا غضبت فأعطني هذه وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه وقال للثالث إذا ذهب غضبي فأعطني هذه فاشتد غضبه يوما فأعطي الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا فسكن بعض غضبه فأعطي الثانية فإذا فيها ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء فأعطي الثالثة فإذا فيها خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك أي لا تعطل الحدود.

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى والكاظمين الغيظ ذكره في معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته. وقال عليه السلام أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند المقدرة. وقال عليه السلام من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة أمنا وإيمانا ورضى. وقال عليه السلام ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله. وقال عليه السلام إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى. وقال عليه السلام ما من

17

جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ يكظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله جوفه إيمانا. وقال من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويخيره في أي الحور شاء. قال عمر رضي الله عنه من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال لقمان لابنه يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك. وقال أيوب حلم ساعة يدفع شرا كثيرا. واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع. وقال رجل لعمر رضي الله عنه والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل فغضب عمر حتى عرف في وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وهذا من الجاهلين فقال عمر صدق الله وكأنما كانت نارا فأطفئت. وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. وجاء رجل إلى سلمان فقال يا عبد الله أوصني قال لا تغضب قال لا أقدر قال فإن غضبت فأمسك يدك ولسانك.

فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلفا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه. أشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم. وقال عليه السلام اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ولينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم. أشار بهذا إلى أن التجبر والتكبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من اللين. وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية. وقال عليه السلام ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عمن جهل عليك. وقال

عليه الصلاة والسلام

خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر وقال عليه السلام ان الرجل المسلم ليدرك
بالحلم درجة الصائم القائم [illegible] ليس جبار العنيد او ما يملك الا اهل بيته وقال بعض المسلمين اللهم ليس
عندي مال اتصدق به فايما مسلم اصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة فاوحى الله الى النبي عليه السلام اني قد غفرت
له وقال النبي صلى الله عليه وسلم ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم قالوا وما ابو ضمضم قال رجل كان فيمن كان
قبلكم كان اذا اصبح يقول اللهم اني اتصدق اليوم بعرضي على من ظلمني وقيل في قوله تعالى ربانيين حلماء علماء
وعن الحسن في قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما اي حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا وقال عطاء يمشون
على الارض هونا اي حلماء وقال ابن ابي حبيب في قوله وكهلا الكهل منتهى الحلم وقال مجاهد واذا مروا باللغو
مروا كراما اي اذا اوذوا صفحوا وروي عن ابراهيم بن ميسرة ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال صلى الله عليه وسلم
اصبح ابن مسعود رضي الله عنه وامسى كريما ثم تلا ابراهيم بن ميسرة واذا مروا باللغو مروا كراما وقال عليه السلام اللهم لا
يدركني ولا ادركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم والسنتهم السنة
العرب وقال عليه السلام ليليني منكم ذوو الاحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا
فتختلف قلوبكم واياكم وهيشات الاسواق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحليم الحيي الغني المتعفف
ويبغض الفاحش البذي السائل الملحف وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا
يعتد بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به في الناس
وقال عليه السلام اذا جمع الخلق يوم القيامة نادى مناد اين اهل الفضل فيقوم ناس يسير فينطلقون
سراعا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون انا نراكم سراعا الى الجنة فيقولون نحن اهل الفضل فيقولون
ما كان فضلكم فيقولون كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا اسيء الينا عفونا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم
ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين [illegible] قال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة
والحلم وقال علي رضي الله عنه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ويعظم
حلمك وان تباهي الناس بعبادة ربك فاذا احسنت حمدت الله واذا اسات استغفرت الله وقال
الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم وقال اكثم بن صيفي دعامة العقل الحلم وجماع الامر
الصبر وقال ابو الدرداء رضي الله عنه ادركت الناس ورقا لا شوك فيه فاصبحوا شوكا لا ورق
فيه ان نقدتهم نقدوك وان تركتهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع قال تقرضهم من عرضك ليوم فقرك

وقال عليه السلام ان اول عوض الحليم من حلمه ان الناس كلهم اعوانه على الجاهل وقال معوية لا يبلغ الرجل
مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته وقال معوية لعمرو بن الاهتم اي الرجال اشجع قال من رد
١٨ جهله بحلمه قال اي الرجال اسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه وقال انس رضي الله عنه في قوله تعالى ادفع
بالتي هي احسن اي حلمه [illegible] هو الرجل يشتمه اخوه فيقول ان كنت كاذبا فيغفر الله لك وان
كنت صادقا فيغفر الله لي وقال بعضهم شتمت صاحبا لي فحلم عني فاستعبدني بها زمانا وشتم رجل
ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ نادى ابن عباس يا عكرمة هل للرجل حاجة فاقضها فنكس الرجل رأسه
واستحيى وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اشهد انك من الفاسقين قال ليس [illegible]
وشتم رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما فكساه خميصة كانت عليه وامر له بالف درهم فقال بعضهم جمع له
زين العابدين [illegible] خمس خصال محمودة الحلم واسقاط الاذى وتخليص الرجل
مما يبعده من الله وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك
بشيء من الدنيا وقال معوية لعرابة بن اوس بم سدت قومك يا عرابة قال كنت احلم عن
جاهلهم واعطي سائلهم واسعى في حوائجهم فمن فعل فعلي فهو مثلي ومن جاوزني فهو افضل مني
ومن قصر عني فانا خير منه وقال رجل لجعفر الصادق رضي الله عنه انه وقع بيني وبين قوم منازعة
في امر واني اريد ان اتركه فاخاف ان يقال لي ان تركك له ذل فقال جعفر انما الذليل الظالم وقال الخليل بن احمد كان يقال من اساء
فاحسن اليه جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل اساءته وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم
ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن يعجل يخطئ ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المراء
يشتم ومن يكره الشر يعصم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يامن ومن يتول
الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ومن لا يخشى الله يخذل ومن يستعن بالله يظفر وقال رجل
لمالك بن دينار رضي الله عنه بلغني انك تشتمني قال انت اذا اكرم علي من نفسي اني اذا فعلت
ذلك اهديت لك حسناتي وقال بعض الحكماء لا يسرك شيئا [illegible] فرح [illegible]
لا يبقى ومر المسيح عليه السلام بقوم يهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون لك شرا
وتقول لهم خيرا فقال كل واحد ينفق مما عنده وقال لقمان يا بني ثلاثة لا تعرف الا عند ثلاثة الحليم
عند الغضب والشجاع عند الحرب والاخ عند الحاجة اليه وضرب رجل رجلا حكيما فاوجعه

فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال الأحنف مقام نحو عشرين فيه ورد عنا الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب … وإن كثرت منه علي الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة … شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره … وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن … إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا … تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز به الانتصار والتشفي من الكلام اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بتجسس ولا مقابلة السب بالسب وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص والغرم على قدر ما ورد الشرع به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه وقال عليه السلام المستبان شيطانان يتهاتران وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ أبو بكر يرد عليه قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر رضي الله عنه إنك كنت جالسا لما شتمني فلما تكلمت قمت قال لأن الملك كان يرد عليك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في موضع فيه شيطان وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وإنما نهيه صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه والأفضل تركه ولكنه لا يعصي بفعله والذي يرخص فيه أن يقول من أنت وهل أنت إلا من بني فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت إلا من بني هذيل فقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بني أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حمقا من بعض وكذا قوله يا جاهل إذ ليس من أحد إلا وفيه جهل فقد آذاه بما ليس فيه كذبه وكذلك قوله يا سيء الخلق يا صفيق الوجه يا ثلاب الأعراض وكان ذلك فيه وكذلك قوله ما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام رضي الله عنهما فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا يعني أن يأثم بعضنا في بعض فلم يسمع السوء فكيف يقوله والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والسب والفحش ما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة

والنبي

والنبي صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية أتحبين ما أحببت قالت نعم قال فأحبي هذه فرجعت إليهن وأخبرتهن بذلك فقلن ما أغنيت عنا شيئا فأرسلن زينب بنت جحش قالت وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت بنت أبي بكر وبنت أبي بكر فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في فأذن لي فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلا إنها ابنة أبي بكر يعني أنك لا تقاومينها في الكلام وقولها سببتها ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال عليه السلام المستبان ما قالا فعلى البادي حتى يعتدي المظلوم فأثبت للمظلوم انتصارا إلى أن يعتدي فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ولا يبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فور الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يطول عليه الانطفاء ولا يختلف في الدوام وإنما الناس في الغضب أربعة فبعضهم كالحلفا سريع الوقود سريع الخمود وهو الأجمل وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهذا هو شرهم وفي الخبر المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك وقال الشافعي رضي الله عنه من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات منهم بطيء الغضب سريع الفيء ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه عليه لأنه ربما يتعدى

احب [illegible] لا يعلمون شنعها غيظه ومن كان نفسه فيلوم صاحب حظ فيه فينبغي ان
يكون انتقامه وانتصاره لله لا لنفسه وراي عمر رضي الله عنه سكرانا فاراد ان ياخذه
ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر فقيل له يا امير المومنين لما شتمك تركته قال
لانه اغضبني فلو عزرته لكان ذلك لنفسي ولم احب ان اضرب مسلما حمية
لنفسي وقال عمر بن عبد العزيز لرجل اغضبه لولا انك اغضبتني لعاقبتك [illegible]

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق اعلم ان الغضب
اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا
ومعنى الحقد ان يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار منه وان يدوم
ذلك ويبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم المومن ليس بحقود فالحقد ثمرة الغضب
والحقد يثمر ثمانية امور الاول الحسد وهو ان يحملك الحقد على ان تتمنى زوال
النعمة عنه فتغتم بنعمة ان اصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به وهذا من
فعل [illegible] الحسد وسياتي ذمه والثاني ان تزيد على اضمار الحسد
في الباطن فتشمت بما يصيبه من البلا الثالث ان تهجره وتصارمه وينقطع
عنه وان طلبك واقبل عليك الرابع وهو دونه ان تعرض عنه استصغارا له
الخامس ان تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشا سر وهتك ستر وغيره
السادس ان تحاكيه استهزا به وسخرية منه السابع ايذاوه بالضرب وما
يولم بدنه الثامن ان تمنعه حقه من صلة رحم او قضا دين او رد مظلمة وكل ذلك
حرام وادنى درجات الحقد ان تحترز من الافات الثمانية المذكورة ولا تخرج
بسبب الحقد الى ما تعصي الله به ولكن تستثقله بالباطن ولا تنهى قلبك عن
بغضه حتى تمتنع عن ما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام
بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له او بترك
الدعا له والثنا عليه او التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص
درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وان كان لا
يعرضك ل

[illegible] زينك
قبله اوح [illegible]
[illegible] رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الامي وآله [illegible]

كتاب [illegible] ذم الغضب والحقد والحسد وهو الكتاب الخامس [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه و[illegible]
الا الراجون ولا يحذر سوء غضبه وسطوته الا الخائفون الذي استدرج [illegible]
من حيث لا يعلمون وسلط عليهم الشهوات وامرهم بترك ما يشتهون
وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون ثم حفهم بالمكاره واللذات
واملى لهم لينظر كيف يعملون وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون وعرفهم
انه لا يخفى عليه شي مما يسرون وما يعلنون وحذرهم ان ياخذهم بغتة وهم لا يشعرون
فقال ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية
ولا الى اهلهم يرجعون والصلاة على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه [illegible]
وعلى آله واصحابه الائمة المهديين والسادة المرضيين صلاة [illegible]
عددها ما كان من خلق الله تعالى و[illegible] ملون [illegible]
[illegible] الاخرون اما بعد فان الغضب شعلة من نار [illegible] نار الله الموقدة
الا انها لا تطلع الا على الافئدة وانها لمستكنة في باطن الفواد استكنان الجمر
تحت الرماد ويستخرجه الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد كما يستخرج الحجر
النار من الحديد وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ان الانسان ينزع منه
عرق الى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة
الشيطان حيث قال خلقتني من نار وخلقته من طين فان شان الطين
السكون والوقار وشان النار التلظي والاستعار والحركة والاضطراب
ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ومفيضهما
مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد

[illegible] ردا

وبرا ويه [illegible]

[illegible] بصيرة فالمعرفة لا تلقيه [illegible] يعرفون لطريق الزكي [illegible]

ومقصية ونحن نشرح ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ويجمعه

بيان ذم الغضب ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة

أم لا ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ثم بيان

فضيلة الحلم ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ثم القول في

معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقته

وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته ثم بيان السبب في كثرة الحسد

بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم

وضعفه ثم بيان القدر الذي لا يجب نفي الحسد عن القلب بيان ذم الغضب

قال الله تعالى إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته

على رسوله الآية ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل

ومدح المؤمنين بما أنعم عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال يا رسول

الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب وقال ابن عمر

قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولا وأقلل قال لا تغضب [illegible] لعلي أعقله [illegible]

[illegible] الجنة [illegible] لا تغضب وعن عبد الله بن عمرو أنه سأل رسول الله [illegible]

[illegible] ماذا يبعدني من غضب الله تعالى قال لا تغضب وقال ابن مسعود قال النبي [illegible]

[illegible] ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا يصرعه الرجال قال ليس ذلك

ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه [illegible]

[illegible] الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال [illegible]

رسول الله من كف غضبه ستر الله عورته وقال سليمان بن داود عليهما السلام [illegible]

إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم وعن عكرمة في قوله [illegible]

[illegible] وسيدا وحصورا قال السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء قلت [illegible]

الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب وقال يحيى لعيسى عليهما السلام لا تغضب

[illegible] أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر قال لا تقتن مالا قال هذا عسى وقال النبي [illegible]

الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل وقال عليه السلام ما غضب أحد إلا أشفى [illegible]

وقال له رجل أي شيء أشد قال غضب الله تعالى قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب [illegible]

[illegible] قال الحسن [illegible] أنه والتقي [illegible] إلا الله [illegible] على [illegible] ما ازداد به [illegible]

[illegible] الغضب فإن السلطان أقدر [illegible] على الإرادة

(۱)

والجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الأول فتجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله تعالى

فلا يخفى غلطه وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء

على قلوبنا وذلك هو منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله فإذا قصد

الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به فلا

يقوى على دفعه فلم نؤمر بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت

الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله وذكر الشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص

من ذكر الله وقد أمر الله عباده بذكره ونسيان من عداه إبليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه

الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر في قلبه

اشتغل بذكر الله وأكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فإنه إذا اشتغل بذلك

بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال

بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل قد ينام وهو خائف أن تفوته

مهم عند طلوع الفجر فيلزم نفسه الحذر ويبني على أن ينتبه ذلك الوقت فينتبه بالليل مرات

قبل الوقت لما استقر في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع

تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذ كان اشتغاله بمجرد ذكر الله وقد أماتت

منه الهوى وأحيي منه نور العقل والعلم وأماطت عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة استشعروا

قلوبهم عداوة الشيطان وصدقوا والزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا

بالذكر شر العدو واستضاؤوا بنور الذكر حتى أبصروا خواطر العدو فمثال القلب مثال

بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها

الماء القذر والذي جمع بين ذكر الله وذكر الشيطان قد نزح الماء القذر من جانب ولكن تركه

جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا ينقى البئر من الماء القذر والبصير هو الذي جعل

مجرى الماء القذر سدا وملأه بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسد من غير تعب بيان الرخصة

في قصد إظهار الطاعات اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء وفي

الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن رحمه الله

قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ولكن في الاظهار فائدة ولذلك أثنى الله على السر والعلانية فقال تعالى إن
تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم والاظهار قسمان أحدهما في نفس العمل
والآخر التحدث بما عمل. القسم الاول اظهار نفس العمل كالصدقة في الملا لترغيب الناس في ذلك
كما روي عن الانصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطا لما راوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم من سن
سنة حسنة فعمل بها كان له اجرها واجر من اتبعه عليها وتجري هذا المجرى في الصلاة والحج والغزو وغيره
ولكن الاقتدا على الطباع في الصدقة اغلب نعم الغازي اذا هم بالخروج فاستعد وشد رحله قبل
القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك افضل له لان الغزو في اصله من اعمال العلانية فلا يمكن اسراره
فالمبادرة اليه ليس من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة الليل
لينبه اهله وجيرانه فيقتدى به وكل عمل لا يمكن اسراره كالحج والجهاد والجمعة فالافضل المبادرة
اليه واظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط الا يكون فيه شائبة ريا واما ما يمكن اسراره كالصلاة
والصدقة فان كان اظهار الصدقة يوذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر
افضل لان الايذا حرام وان لم يكن فيه ايذا فقد اختلف الناس فقال قوم السر افضل من العلانية
وان كان في العلانية قدوة وقال قوم السر افضل من علانية لا قدوة فيها واما العلانية للقدوة
فهي افضل من السر ويدل عليه ان الله تعالى امر الانبيا باظهار العمل للاقتدا وخصهم بمنصب
النبوة ولا يجوز ان يظن بهم انهم حرموا افضل العملين ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فله اجران
اجرها واجر من عمل بها وفي الحديث ان اعمال السر تضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف
عمل العلانية اذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا وهذا لا وجه للخلاف فيه فانه مهما
انفك القلب عن شائبة الريا وتم الاخلاص على وجه واحد في الحالين فما يقتدى به افضل لا محالة
وانما يخشى من ظهور الريا ومهما حصلت شائبة الريا لم ينفعه اقتدا غيره به وهلك به فلا
خلاف ان السر افضل ولكن على من يظهر العمل وظيفتان احداهما ان يظهره حيث يعلم انه
يقتدى به او يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدي به بعض دون بعض وانما العالم المعروف
هو الذي يقتدي به كل الناس فغير العالم اذا اظهر بعض الطاعات ربما نسب للريا
والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وانما يصح الاظهار بنية

القدوة ممن هو من اهل القدوة على من هو في محل الاقتدا. والوظيفة الثانية أن يراقب
قلبه فربما يكون فيه حب الريا الخفي فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتدا وانما شهوته التجمل
بالعمل وبكونه مقتدى به وهذا حال كل من يظهر اعماله الا اهل الاخلاص وقليل ما هم
فلا ينبغي ان يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر فان الضعيف كالغريق مثاله
الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر جماعة غرقى فرحمهم فيقبل عليهم فيتشبثوا به
فيغرق ويغرقون والغرق بالما المه ساعة وليت كان الهلاك بالريا مثله لا بل عذابه
دائم وهذه مزلة اقدام العباد والعلما فانهم يتشبهون بالاقويا في الاظهار ولا تقوى
قلوبهم على الاخلاص فتحبط اجورهم بالريا والتفطن لذلك غامض ومحك ذلك ان يعرض
على نفسه انه لو قيل له اخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من اقرانك ويكون لك
في السر مثل اجر العلانية فان مال قلبه الى ان يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه
الريا دون طلب الاجر باقتدا الناس ورغبتهم في الخير فانهم قد رغبوا في الخير بنظرهم الى غيره
واجره قد توفر عليه مع اسراره فما بال قلبه يميل الى الاظهار لولا ملاحظته لاعين الخلق ومراياتهم
فليحذر العبد خدع النفس فان النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب
غالب وقلما تسلم الاعمال الظاهرة من الآفات فلا ينبغي ان يعدل بالسلامة شيا فالسلامة
في الاخفا وفي الاظهار من الاخطار ما لا يقوى عليه امثالنا فالحذر من الاظهار اولى بنا وبجميع
الضعفا. القسم الثاني ان يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل
نفسه والخطر في هذا اشد لان موونة النطق خفيفة على اللسان وقد يجري في الحكاية
زيادة ومبالغة وللنفس لذة في ظهور الدعاوي الا انه لو تطرق اليه الريا لم يوثر في افساد
العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه اهون والحكم فيه ان من قوي قلبه
وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك
عند من يرجو الاقتدا به ويرغب في الخير بسببه فهو جائز بل مندوب اليه ان سلمت
النية من جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل ذلك
عن جماعة من السلف الاقويا قال سعد بن معاذ ما صليت قط منذ اسلمت فحدثت نفسي بغيرها

ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي فاعلة وما هو مقول لها ولا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقول قولا قط إلا علمت أنه حق وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي أصبحت على يسر أو عسر لأني لا أدري
أيهما خير لي وقال ابن مسعود رضي الله عنه ما أصبحت على حال فتمنيت غيرها وقال عثمان رضي الله عنه
ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو سفيان
لأهله حين حضرته الوفاة لا تبكوا علي فإني ما أحدثت ذنبا منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز
ما قضى الله لي بقضاء فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله فهذه
كلها إظهار لأحوال شريفة وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب
إذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا
ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال فالطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل إظهار المرائي
للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي وكم من مخلص
كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله وقيل كان يجتاز الناس في طرق البصرة
عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن في البيوت وصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء
فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فإظهار المرائي
فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا
خلاق لهم وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم. بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة
اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية
كما قال عمر رضي الله عنه لرجل عليك بعمل العلانية قال يا أمير المؤمنين وما هو قال ما إذا اطلع عليك
فيه لم تستحي منه وقال أبو مسلم الخولاني رحمه الله ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني
أهلي والغائط إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد ولا يخلو الإنسان عن ذنوب
بقلبه وجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات
والأماني والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد إخفاءه عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور
وليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله وهو ليس كذلك
فهذا هو ستر المرائي وأما الصادق الذي لا يرائي فله أن يستر المعاصي ويصح قصده في ذلك

ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه ١ أولها أن يفرح بستر الله عليه وإذا افتضح
اغتم بهتك ستره وخاف أن يهتك ستره يوم القيامة إذ ورد أن من ستر عليه في الدنيا ستر عليه
في الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان ٢ قد علم أن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وهو إن عصى
الله بالذنب فلم يخل قلبه من محبة ما أحبه الله وهذا أيضا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله
ظهور المعاصي وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه ٣ أن
يكره ذم الناس له من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه عن طاعة الله فإن الطبع يتأذى
بالذم ويشغل عن الطاعة ولهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن الله ويستغرق
قلبه وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان
٤ أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى قلبه فإن الذم
مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص
وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حوفا من ذمهم وليس
يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به نعم من تمام الصدق أن تزول عنه رؤية
الخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وحده لا شريك له
وأن العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور
بالنقصان ورب متألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء
الله تعالى وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقص في الدين فكيف لا يغتم بل إنما يغتم الغم
المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمد بالورع ولا يجوز أن يحب أن
يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فإن وجد ذلك في نفسه وجب
عليه أن يقابله بالكراهة والرد وأما كراهته للذم بالمعصية من حيث الطبع فليس
بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن
يكره الذم وإنما مراده أن يتركه الناس ذما وحمدا فكم من صابر عن لذة الحمد ولا يصبر
على ألم الذم إذ الحمد طلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فإنه مؤلم فحب الحمد على الطاعة

طلب ثواب سر الطاعة في الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو
أن يشغله غمه باطلاع الخلق عن اطلاع الله تعالى فإن ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون
غمه باطلاع الله ومذمته له أكثر وقد يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله به وهذا أيضا من
الإيمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف
التوجع من جهة الطبع ٥ أن يستر ذلك كيلا يقصد بسوء إذا عرف بذنبه وهو وراء
ألم الذنب فإن الذنب مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن
شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستتر حذرا من ذلك
٦ مجرد الحيا فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر والحيا خلق كريم يحدث في أول
الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيي من القبائح إذا استشهدت منه وهو وصف
محمود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحيا خير كله الحيا شعبة من الإيمان الحيا لا يأتي إلا
بخير وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الحيي الحليم فالذي يفسق ولا يبالي بأن يظهر فسقه
للناس قد جمع إلى الفسق التهتك والوقاحة وفقد الحيا وهو أشد حالا ممن يفسق ويستتر
ويستحيي إلا أن الحيا ممتزج بالريا ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ويدعي
كل مراي أنه مستحيي وأن سبب تحسينه للعبادات هو الحيا من الناس وذلك كذب بل الحيا
ينبعث من الطبع الكريم ويهيج عقيبه داعية الريا وداعية الإخلاص ويتصور أن يخلص
معه ويتصور أن يرائي معه وبيانه أن الرجل قد يطلب من صديق قرضا ونفسه لا تسخو
بإقراضه إلا أنه يستحيي من رده ويعلم أنه لو كلمه على لسان غيره لكان لا يستحيي ولا يقرض لا
ريا ولا طلب ثواب فله عند ذلك أحوال أحدها أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالي
فينسب إلى قلة الحيا وهذا فعل من لا حيا له فإن المستحيي إما أن يتعلل أو يقرض فإن
أعطى فيتصور له ثلثة أحوال أحدها أن يمزج الريا بالحيا بأن يهيج الحيا فيقبح عنده الرد
فيهيج خاطر الريا ويقول له ينبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك بالسخاء أو ينبغي أن تعطي
حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل فإن أعطى على هذه الصفة فقد أعطى ريا وكان المحرك للريا هو
هيجان الحيا الثاني أن يتعذر عليه الرد بالحيا ويبقى البخل في نفسه فيتعذر الإعطا

٢٤

فيهيج باعث الإخلاص ويقول له إن الصدقة بواحدة والقرض بثمانية عشر ففيه أجر عظيم وإدخال
سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فيسخو بالعطا لذلك فهذا مخلص هيجه الحيا للإخلاص
الثالث ألا يكون له رغبة في ثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته بل لو طلبه مراسلة لكان ن
لا يعطيه فأعطاه بمحض الحيا ولو جاءه من لا يستحيي منه من الأجانب والأراذل لكان يرده وإن ن
كثر الحمد أو الثنا أو الثواب فيه فهذا مجرد الحيا ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل وارتكاب ب
الذنوب والمرائي يستحيي من المباحات أيضا حتى أنه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدو
أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ويزعم أن ذلك حيا وهو عين الريا وقد قيل إن بعض الحيا ضعف
وهو صحيح والمراد به الحيا مما ليس بقبيح كالحيا من وعظ الناس وإقامة الصلاة وهذا الحيا في
النسا والصبيان محمود وفي العقلا غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحيي من شيبته
أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم وهذا الحيا حسن وأحسن
منه أن يستحيي من الله تعالى فالقوي يؤثر الحيا من الله على الحيا من الناس ٧ أن يخاف من إظهار السابع
ذنبه سقوط وقع المعاصي من النفس وجرأتها عليها فإن النفس متى ألفت ظهور الذنوب
زاد انهماكها واسترسلت في شهواتها ٨ أن يخاف من ظهور ذنبه أن يتجرى عليه الثامن
غيره ويقتدي به وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعات وهي القدوة
ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به ولهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي أيضا معصيته
عن أهله وولده فإنهم يتعلمون منه ففي ستر الذنب هذه الأعذار الثمانية وليس في إظهار
عذر الإظهار العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل للناس أنه ورع كان مرائيا
كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة فإن قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ح
وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني
الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك به فنقول حبك
لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود أن
تحب ذلك لتعرف به حب الله لك وأنه إذا أحب عبدا حببه إلى عباده والمذموم
أن تحب حمدهم وحبهم على غزوك وحجك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فإن ذلك

طلب عوض على طاعة الله عاجلا سوى ثواب الله تعالى والمباح أن تحب أن تحبوك لصفات محمودة
سوى الطاعات المحدودة المعينة فحبك لذلك كحب المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض
كملك الأموال فلا فرق بينهما

بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان
بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم إلى
ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات إنما تصير لذيذة
من حيث إنها توصل إلى حمد الناس وحمد الناس لذيذ وذلك عند اطلاع الناس عليها وإلى ما هو
لذيذ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة
وإمامة الصلوات والتدريس والوعظ وإنفاق المال على الخلق ونحو ذلك مما تعظم فيه الآفة
لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة

القسم الأول الطاعات اللازمة للبدن التي لا
تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصلاة والصوم والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث إحداها ما يدخل
قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا ينبغي أن يترك
لأنه معصية لا طاعة لأنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة فإن قدر الإنسان على أن
يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين
بالعمل لأجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله وتشتغل بالعمل بل
ينبغي أن يزيد في العمل عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له **الثانية** أن ينبعث
لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد
باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص بالمعالجة التي
ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول **الثالثة** أن يعقد على الإخلاص
ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكن يرجع إلى عقد الإخلاص
ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل فإذا لم تجبه
واشتغلت بالعمل دعاك إلى الرياء فإذا لم تجبه ودفعته بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص
وأنت مراء وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك

العمل فإذا تركته لذلك فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون
مرائيا كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زوان وقال له خلصها من الزوان ونقها تنقية
بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا فترك العمل
من أصله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على
الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به فهذا أيضا من مكايد الشيطان لأنه أولا أساء
الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة
فترك العمل خوفا من قولهم إنه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له
ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا
من أن يقال إنه مراء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر بل ترك العمل أشد
من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان للعباد الجهال ثم كيف يطمع أن يتخلص من الشيطان بأن
يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنك
مخلص لا تشتهي الشهرة فيضطرك بذلك إلى أن تهرب فإذا هربت ودخلت سربا تحت
الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس تزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم
على ذلك فكيف تتخلص بل لا نجاة لك منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر
في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهية والإباء قلبك وتستمر على العمل ولا تبالي وإن
نزغ العدو ونازع الطبع فإن ذلك لا ينقطع وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك
الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك
الحياء من الله إذ دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولو
اطلع الخلق على قلبك لمقتوك بل إن قدرت أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك
فافعل فإن قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه لما تصادف في قلبك من كراهة الرياء
وإبائه وخوفك من الله تعالى وإن لم تجد في قلبك له كراهية ولم تبق باعثا دينيا بل تجرد باعث
الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ممن شرع في العمل لله تعالى فإنه لا بد أن يبقى معه
أصل قصد الثواب فإن قلت فقد نقل عن قوم ترك العمل مخافة الشهرة روي أن إبراهيم

النخعي رحمه الله

دخل انسان عليه فاطبق المصحف وترك القراءة وقال لا يظن هذا انا نقرأ كل ساعة. وقال ابراهيم
التيمي اذا اعجبك الكلام فاسكت واذا اعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن ان كان احدهم ليمر بالاذى
في الطريق ما يمنعه من رفعه الا كراهة الشهرة. وكان احدهم ياتيه البكاء فيصرفه الى الضحك
مخافة الشهرة قلنا هذا يعارضه ما ورد في اظهار الطاعات من الاخبار واظهار الحسن البصري
هذا الكلام في معرض الوعظ اقرب الى خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذى عن الطريق ثم لم
يتركه وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء
دون الضعفاء فالافضل ان يتم العمل ويجتهد في الاخلاص ولا يتركه واصحاب الاعمال
يعالجون انفسهم بخلاف الافضل لشدة الخوف والاقتدا ينبغي ان يكون بالاقوياء واما
اطباق ابراهيم المصحف فيمكن ان يكون لعلمه بانه سيحتاج الى ترك القراءة عند دخوله والى
استئنافها بعد خروجه للاشتغال بمكالمته فراى الاخفاء في القراءة ابعد عن الرياء وهو
عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليها بعد ذلك واما ترك رفع الاذى عن الطريق
فذلك ممن يخاف على نفسه الشهرة واقبال الناس عليه وشغلهم اياه عن عبادات هي اكثر من
رفع عود عن الطريق فيكون تركه ذلك للمحافظة على عبادات هي اعظم منه لا لمجرد خوف
الرياء واما اذا اعجبك الكلام فاسكت فيجوز ان يريد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات
وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فانه عدول
عن مباح الى مباح حذرا من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم ينص عليه على ان
الآفة ما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني وكلامنا في العبادات الخاصة بالبدن
مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في ترك البكاء واماطة
الاذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية احوال الضعفاء الذين لا يعرفون الفضل ولا
يدركون هذه الدقائق وانما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها

القسم الثاني

ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاخطار واعظمها الخلافة
ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال اما الخلافة والامارة فهي
افضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوم من امام عادل

خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة. وقال صلى الله عليه وسلم
اول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط. وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام
العادل احدهم. وقال صلى الله عليه وسلم اقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة امام عادل فالامارة
والخلافة من اعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها
وذلك لما فيها من عظيم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه
ولذة الاستيلاء ونفاذ الامر وذلك من اعظم ملاذ الدنيا فاذا صارت الولاية محبوبة كان
الوالي ساعيا في حظ نفسه ويوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته
وان كان حقا ويقدم على ما يزيد في مكانته وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون
يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث. ولهذا الخطر العظيم
كان عمر رضي الله عنه يقول من ياخذها بما فيها وكيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم ما من وال على
عشرة الا جاء يوم القيامة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها الا عدله وفي رواية اطلقه عدله
او اوبقه جوره رواه معقل بن يسار وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ولاية فقال اشر
علي يا امير المؤمنين فقال اجلس واكتم علي. وولى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا الامارة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم
خر لي فقال اجلس. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة
فانك ان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها وان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها
وقال ابو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر لا تتأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال
له رافع الم تقل لي لا تتأمرن على اثنين وانت قد وليت امر هذه الامة فقال بلى وانا
اقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه لعنة الله. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد
في فضل الامارة مع ما ورد في النهي عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص
الاقوياء في الدين لا ينبغي ان يمتنعوا من تقلد الولايات وان الضعفاء لا ينبغي ان يدوروا
بها فيهلكوا واعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تاخذه في الله
لومة لائم وهم الذين سقط الخلق من اعينهم وزهدوا في الدنيا وقهروا انفسهم
وقمعوا الشيطان وايسوا منهم فهؤلاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت

فيه أزواجهم فهم أهل الخلافة والإمارة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات
ومن جرب نفسه فوجدها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولاية ولكن خاف عليها
أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر وتكره العزل فيداهن
خيفة من العزل فهذا قد اختلف الفقهاء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية أم لا يلزمه
فقال قوم لا يلزمه لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة
الحق وترك لذات النفس والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة
بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت
التردد والامتناع من قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل
طلاق الرجال فإذا شرع فيها فلا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق
وتهوي به في قعر جهنم ولا يستطيع النزوع منها إلى الموت إلا أن يعزل قهرا والعزل فيه
عذاب عاجل لكل محب للولاية ومهما مالت النفس للولاية فهي أمارة الشر ولذلك
قال عليه السلام لا نولي أمرنا من سألنا فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف
عرفت أن نهي أبي بكر رضي الله عنه رافع بن عمر عن الولاية ثم تقلده هو لها ليس بمتناقض
وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما فإن كل ذي ولاية أمير
أي له أمر نافذ والإمارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب
فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة واحد في الجنة
واثنان في النار وقال صلى الله عليه وسلم من استقضي فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم الإمارة
فينبغي أن يتركه الضعفاء ومن للدنيا قدر في عينه ويتقلده الأقوياء في الدين الذين لا تأخذهم
في الله لومة لائم ومهما كانت السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال
بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق عزلوه أو لم
يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون
خوف العزل عذرا مرخصا له في الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح
بالعزل إن كان يقضي لله فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذا يقضي لاتباع الهوى فكيف

يرجو ثوابا عليه وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار وأما الوعظ والفتوى والتدريس
ورواية الحديث وكلما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضا عظيمة مثل آفة
الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا وكانوا
يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فكأنما قال أوسعوا لي ودفن بشر رحمه الله عنه
كذا وكذا قمطرا من الحديث وقال يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدث ولو اشتهيت
أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس بوعظه وبكائهم وزعقاتهم
لذة لا يوازيها لذة فإذا غلب ذلك على قلبه مال إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن
كان باطلا ونفر عن كل كلام حق يستثقله العوام فتراه يستنشد الأشعار الخمرية والعشقية
ويورد أخبار المتنعمين ويستدعي الطرب بإنشاد الدوبيتات وكان همه من
آلة أرباب الطرب ويكون مصروف همته بالكلية إلى ما يهيج به قلوب العوام لتعظم
منزلته عندهم فلا يسمع حديثا وكلمة إلا يفرح بها لأنها تصلح أن يذكرها على رأس المنبر
وكان ينبغي أن يكون فرحه بها من حيث أنه عرف طريق السعادة وعرف سلوك سبيل
الدين ليعمل به أولا ثم يقول إذا أنعم الله علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الكلمة فأنشرها
ليشاركني في نفعها إخواني المسلمين فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه
حكم الولايات فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر
والتكاثر فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في
الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه فإن قلت فمهما حكم بذلك
على أهل العلوم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم
عن طلب الإمارة وتوعد عليه حتى قال إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم
القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها وقال نعمت المرضعة وبئست الفاطمة ومعلوم
أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال وزال
الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك وضرب عمر أبي بن كعب رضي الله عنه
حين رأى قوما يتبعونه وهو في ذلك يقول إنه سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن

ذلك من أن يتبعه فإن ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا
يمتنع من ذلك واستأذن رجل عمر رضي الله عنه في أن يعظ الناس فمنعه فقال أتمنعني من نصح الناس
فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء
والخلافة مما يحتاج الناس إليها في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة
ولذة فلا فرق بينهما وأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهي
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى
طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الناس وقيدوا بالقيود عن
طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لكسروا القيود وهربوا من السجن وطلبوها وقد وعد الله
أن يؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم
وانظر لنفسك ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يتعظون مثلا فليس في النهي عنه إلا
امتناع بعضهم وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا
واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر وتخييله للعوام
أنه يريد بوعظه الله وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وعظ
نفسك فإن قال لست أقدر على نفسي فنقول اشتغل وجاهد وعظ لأنا نعلم لو ترك ذلك لهلك
الناس إذ لا قائم به غيره ولو واظب عليه وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين
الجميع أحب إلينا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء القوم ونقول لعل هذا المشار إليه بقول
النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ثم الواعظ هو الذي يرغب في
الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته فأما ما أحدثه الوعاظ في هذا العصر من الكلمات
المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف
للمسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي فيجب إخلاء البلاد منهم فإنهم نواب الدجال
وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول
ولا يقصد غيره وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد في حق علماء السوء كفاية ولقد
قال عيسى عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون

وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى وما
يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج الطيب
من الدقيق وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم
يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته
بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم
أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأي الناس أخسر
منكم ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون
أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع
السراج فوق ظهره وجوفه مظلم كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم
منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام يوشك أن تقلعكم
الدنيا عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم يدفعكم العلم من خلفكم
فيسلمكم إلى الملك الديان عراة حفاة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء
أعمالكم وروى المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين
الإنس فتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا
الدين للدنيا فهم في الدنيا عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون فإن قلت هذه الآفات
ظاهرة لكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه
يا علي لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم أيما داع
دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ونحو ذلك كثير فينبغي أن يقال
للعالم اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خطر له الرياء في الصلاة لا تترك
العمل ولكن تمم العمل وجاهد في الإخلاص فاعلم أن فضل العلم كبير وشرفه عظيم كفضل
الخلافة والإمارة ولا نقول لأحد من الناس اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما
الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا نقول له أيضا
اتركه ما دام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فأما إذا لم يحركه إلا الرياء

فتركه للاظهار انفع له واسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها
فاما اذا خطرت له وساوس الرياء في اثناء الصلاة وهو لها كاره فلا ينبغي له ان يترك الصلاة
لان آفة الرياء في العبادات ضعيفة وانما تعظم في الولايات والتصدي للمناصب الكبيرة كالعلم
وبالجملة فالمراتب ثلاث الاولى الولايات والآفة فيها عظيمة وقد تركها جماعة من
السلف خوفا من الآفة. الثانية الصلاة والصوم والحج والغزو وقد تعرض لها اقوياء
السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم تركها لخوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة
فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل بالله بادنى قوة. الرتبة الثالثة وهي متوسطة بين
الرتبتين وهي التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها
اقل مما في الولايات واكثر مما في الصلوات والصلاة لا ينبغي ان يتركها الضعيف والقوي
ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغي ان يتركها الضعفاء دون الاقوياء ومناصب
العلم بينهما ومن جرب آفات مناصب العلم علم انها بالولايات اشبه وان الحذر منها
في حق الضعيف اسلم والله اعلم وههنا رتبة رابعة وهي جمع المال واخذه للتفرقة على
المستحقين فان في الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفي ادخال السرور على قلوب
الناس لذة للنفس والآفات في ذلك ايضا كثيرة. ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت
ثم امسك وآخر اخذ فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد افضل وذلك لما يعرفون من
قلة السلامة في الدنيا وان من الزهد تركها قربة الى الله تعالى. وقال ابو الدردا ما يسرني لو قمت
على درج مسجد دمشق اصيب كل يوم خمسين دينارا اتصدق بها اما اني لا احرم البيع والشرا
ولكني اريد ان اكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وقد اختلف العلماء
في ذلك فقال قوم اذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منه وتصدق به فهو افضل من ان يشتغل
بالعبادات والنوافل. وقال قوم الجلوس في دوام الذكر افضل والاخذ والعطا يشغل
عن ذكر الله. وقال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا ليبر تركك لها ابر. وقال اقل ما فيه انه
يشغله اصلاحه عن ذكر الله وذكر الله افضل واكبر وهذا فيمن سلم من الآفات فاما من يتعرض
لآفة الرياء فتركه لطلب الدنيا واشتغاله بالذكر افضل بلا خلاف وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس

لذة فهو مثار الآفات والاحب ان يعمل ويدفع الآفة فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه
وليزن خيره بشره وليفعل ما يدله عليه نور العلم دون ما يميل اليه الطبع وبالجملة ما يجده اخف على
قلبه فهو اضر عليه غالبا لان النفس لا تشير الا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان
لا يبعد ذلك ايضا في بعض الاحوال وهذه امور لا يمكن تفصيلها بفتوى اثباتا ونفيا وهي موكولة
الى اجتهاد القلب لينظر فيها لدينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ثم قد يقع فيما ذكرناه غرور
للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة الآفة وذلك عين البخل ولا خلاف ان انفاقه في المباح فضلا
عن الصدقات افضل من امساكه وانما الخلاف فيمن يحتاج الى الكسب هل الافضل ترك الكسب والتجرد
للذكر او الكسب للمال وانفاقه في الخيرات وذلك لما في الكسب من الآفات فاما المال الحاصل من الحلال
فتفرقته افضل بكل حال من امساكه فان قلت فباي علامة يعرف العالم والواعظ انه صادق مخلص
في علمه ووعظه غير مراء ام هو بخلاف ذلك فاعلم ان لذلك علامات احداها انه لو ظهر من
هو احسن منه وعظا او اغزر منه علما والناس له اشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا باس
بالغبطة ان يتمنى لنفسه مثل علمه والاخرى ان يكون لو حضر الاكابر مجلسه لم يتغير كلامه بل
يبقى على ما كان عليه فينظر الخلق بعين واحدة والاخرى لا يحب اتباع الناس له في الطريق ولا
المشي خلفه في الاسواق ولذلك علامات كثيرة يطول احصاؤها. قال سعيد بن ابي مروان رحمه الله
كنت جالسا الى جنب الحسن في المسجد اذ دخل علينا الحجاج المسجد راكبا على برذونه ومعه الحرس
فاتى حلقة احفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها ونزل ومشى اليه فلما رآه الحسن متوجها اليه
تجافى له عن ناحية مجلسه. قال سعيد وتنحيت له حتى صار بيني وبين الحسن والحسن يتكلم كما
يتكلم كل يوم ولم يقطع كلامه. قال سعيد فقلت في نفسي لابلون الحسن ولانظرن هل يحمله
جلوس الحجاج اليه ان يزيد في كلامه يتقرب اليه او يحمله هيبة الحجاج ان ينقص من كلامه
فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما يتكلم به كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه فلما فرغ وهو غير
مكترث رفع الحجاج يده على منكب الحسن وقال صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس
فاتخذوها عادة فانه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مجالس الذكر رياض الجنة
ولولا ما حملناه من امر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ثم ابتدا الحجاج يتكلم حتى

أعجب الحسن وكره حضر بن حسن بلاغته ثم خرج فجاء رجل من أهل الشام الى الحسن فقال الا تعجبوا
مني اني شيخ كبير ولي الغزو وقد كلفني عريشا وبغلا وخيمة ولي سبع بنات وعطائي ثلثماية
درهم وشكا حاله حتى رق له الحسن واصحابه ثم قال الحسن ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد
الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدرهم والدينار فاذا غزا عدو الله غزا في
الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة فاذا اغزى اخاه اغزاه طاويا راجلا فما
ذكرهم باقبح ذكر واشده فبلغ ذلك الحجاج فارسل اليه فاتته رسل الحجاج وقالوا
اجب الامير فقام الحسن وخفنا عليه مما تكلم به فلم يلبث ان رجع وهو يبتسم فجلس في
مجلسه فعظم الامانة وقال انما تجالسون بالامانة كانكم تظنون ان الخيانة ليست الا في
الدرهم والدينار ان الخيانة كل الخيانة ان يجالسنا الرجل فنطمئن اليه في القول ثم ينطلق
فيسعى بنا الى شرارة من نار اني اتيت هذا الرجل فقال يا حسن اقرض من لسانك
وقولك اذا غزا عدو الله غزا كذا واذا اغزى اخاه اغزاه كذا لا ابا لك تحرض الناس
علينا اما انا على ذلك لا نتهم نصيحتك لكن امسك من كلامك فينا والسلام قال
فدفعه الله عني ◦ وركب الحسن حمارا فالتفت فراى جماعة يتبعونه فوقف وقال هل لكم
من حاجة والا فارجعوا فما يبقي هذا من قلب العبد فبهذه العلامات وامثالها يتبين بعض
الناظر ومهما رايت العلما يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون
فاعلم انهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة فهم الخاسرون ◦ **بيان ما يصح** من نشاط العبد
للعبادة بسبب روية الخلق وما لا يصح اعلم ان الرجل قد يبيت مع قوم فيقومون
للتهجد فيصلون معظم الليل وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فاذا راهم انبعث
نشاطه للموافقة فصلى معهم وكذلك قد يقع في موضع يصام فيه فينبعث نشاط
في الصوم ولولا صيام اهله ولولاهم لما انبعث له نشاط فهذا ربما يظن انه رياء وان الواجب
ترك الموافقة وليس كذلك على الاطلاق بل له تفصيل لان كل مومن راغب في عبادة
الله وفي قيام الليل وصيام النهار ولكن قد يعوقه عوائق وتغلبه الشهوات او
تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة او تندفع العوائق

ب

والشهوات في بعض المواضع فينبعث النشاط وقد يكون الرجل في منزله فتنقطع الاسباب
عن التهجد مثل تمتعه بزوجته او محادثته مع اهله واولاده او مطالعة حساب او قراءة
كتاب او سبب يكون يتعلق به فاذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه العوائق او
اكثرها وذهبت الشواغل التي كانت تفتر رغبته وحصلت اسباب باعثة على الخير
كمشاهدة اهل المنزل وقد اقبلوا على الله واعرضوا عن الدنيا فينظر اليهم وينافسهم ويشق
عليه ان يسبقوه بطاعة فيتحرك داعيه الدين لا للرياء وربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع
او بامر اخر فيغتنم زوال النوم والنفس لا تسمح بالتهجد الا وقتا طويلا فيكون ذلك بسبب
هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه اطايب
الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها فاذا اعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه الصوم فتنبعث
داعية الدين للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا
سلم منها قوي الباعث فهذا وامثاله من الاسباب يتصور وقوعه فيكون السبب
فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان عند ذلك يصد عن العمل ويقول له
لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزيد على صلاتك المعتادة وقد
تكون رغبته في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل لا
سيما اذا كانوا يظنون انه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بان يسقط من اعينهم
فيريد ان يحفظ منزلته عندهم فعند ذلك قد يقول له الشيطان صل فانك مخلص
ولست تصلي لاجلهم بل لله وانما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك زوال
العوائق لا اطلاعهم وهذا امر مشتبه الا على ذوي البصائر فان عرف ان المحرك له هو
الرياء فلا ينبغي ان يزيد على عادته ولا ركعة واحدة لانه يعصي الله بطلبه محمدة الناس بطاعة
الله وان كان انبعاثه لرفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم
فليوافق وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه انه لو راهم يصلون من حيث لا يرونه
بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم
لا يرونه فان سخت فليصل فان باعثه الحق وان كان يثقل عليه لو غاب عن اعينهم

فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل
يوم ويمكن ان يكون ذلك لحب حمدهم ويمكن ان يكون سببه تحرك نشاطه بسبب نشاطهم وزوال
غفلته بسبب اقبالهم على الله وقد يتحرك بذلك باعث الدين وتقارنه نزوع في النفس الى حب الحمد
فمهما علم ان الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغي ان يترك العمل لما يجده من حب الحمد بل ينبغي
ان يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة وكذلك قد تبكي جماعة حالة سماع وعظ
فينظر اليهم فيبكي خوفا من الله لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لما كان يبكي لكن
بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة للرياء وتارة مع الاخلاص اذ
يخشى على نفسه قساوة القلب حين يراهم يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا وذلك محمود
وعلامة الصدق فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان
يخاف على قلبه قساوة فيتباكى ام لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن اعينهم فانما
خوفه ان يقال انه قاسي فينبغي ان يترك التباكي قال لقمان رحمه الله لابنه يا بني لا ترى الناس
انك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند قراءة القرآن
او الذكر او بعض مجاري الاحوال فانه تارة يكون من الصدق والخوف والندم
وتارة يكون لمشاهدة حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والانين ويتحازن
وذلك محمود وقد تقترن به الرغبة في ذلك لدلالته على انه كثير الحزن ليعرف بذلك
فان تجردت هذه الداعية فهي الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان اباها ولم يقبلها
سلم وان قبل ذلك حبط اجره وتعرض لسخط الله وقد يكون اصل الانين عن الحزن
ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور فانها في حكم الابتداء المجرد
للرياء وقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبق خاطر الرياء فيقبله
فيدعو الى زيادة تحزين للصوت او رفع له او حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد
ان استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ اثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع
الذكر فيضعف قوته من الخوف ويسقط ثم يستحي ان يقال سقط من غير زوال عقل
فيزعق ويتواجد ليرى انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتدا السقطة عن صدق
وقد يزول عقله

٣٦ الربع عشر الربع من الاحيا

وقد يزول عقله فيسقط لكن يفيق سريعا فيجزع نفسه ان يقال حالته غير ثابتة وانما هي
كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام الحال وكذلك قد يفيق بعد الضعف — الضعف
ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع ان يقال لم تكن غشيته صحيحة فيستديم اظهار الضعف والانين
فيتكئ على غيره ليرى انه ضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا فهذه كلها مكايد
الشيطان ونزغات النفس فاذا خطرت فعلاجها ان يتذكر ان الناس لو عرفوا نفاقه
في الباطن لمقتوه وان الله مطلع على ضميره وهو له اشد مقتا كما روي عن الجنيد انه قام وزعق
فقام معه شيخ فرا فيه اثر التكلف فقال يا شيخ الذي يراك حين تقوم فجلس الشيخ وكل ذلك من اعمال المنا — فقعد
وفي الخبر تعوذوا بالله من خشوع النفاق وهو ان تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك
الاستغفار والتعوذ بالله من عذابه وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر
ذنب وقد يكون للمراياة فهذه خواطر ترد على القلب مترادفة متضادة متعاقبة
مع تقاربها مشتبهة فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن اين هو فان كان
لله فامضه واحذر مع ذلك ان يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب
النمل وكن على وجل من عبادتك اهي مقبولة ام لا لتخوفك على الاخلاص فيها واحذر
ان يتجدد لك خاطر الركون الى حمدهم بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يخطر فاذا
خطر فتفكر في اطلاع الله عليك وتذكر ما قاله بعضهم لايوب النبي عليه السلام يا ايوب اما
علمت ان العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها نفسه ويجزى بسريرته وقال
بعضهم اعوذ بك ان يرى الناس اني اخشاك وانت لي ماقت وكان من دعا السجاد زين — العابدين رضي الله عنه
اللهم اني اعوذ بك ان تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما اخلو سريرتي محافظا
على رياء الناس مني ومضيعا لما انت مطلع عليه مني ابدي للناس احسن امري وافضي
اليك بسوء عملي تقربا الى الناس بحسناتي وفرارا اليك منهم بسيئاتي فيحل بي مقتك ويجب
علي غضبك اعذني من ذلك فان بيدك الخير والعفو يا رب العالمين وقال رجل — لايوب النبي صلى الله عليه وسلم
المبتلى يا ايوب ان الذين حفظوا علانيتهم واضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات تسود
وجوههم فهذه جمل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها وفي الخبر ان للرياء سبعين

بابا وقد عرفت ان بعضه اغمض من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه اخفى من ذلك
فكيف يدرك ما هو اخفى من دبيب النملة الا بشدة التفقد والمراقبة وليته ادرك بعد بذل المجهود
فكيف يطمع شخص في ادراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها **بيان
ما ينبغي للمريد** ان يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه اعلم ان اولى ما يلزم المريد قلبه في سائر
اوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لا يخاف سوى الله ولا يرجو سواه
واما من خاف غيره ورجاه فانه يشتهي اطلاعه على محاسن احواله فان كان في هذه الرتبة فليلزم
قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه
عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره فان النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا
على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم او الخوف او البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا
لك فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون
قدرك ويحرمون الاقتداء بك ففي مثل هذا الامر ينبغي ان يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظيم
عمله عظيم ملك الاخرة ونعيم الجنة وعظيم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده
ويعلم ان اظهاره لغيره محبب اليه سقوط عند الله واحباط العمل العظيم فيقول وكيف اتبع مثل
هذا العمل بحمد الخلق وهم لا يقدرون لي على رزق ولا اجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي ان
ييأس من الاخلاص ويقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء واما المخلطون فليس ذلك من
شانهم فيترك المجاهدة في الاخلاص لان المخلط الى ذلك احوج من المتقي لان المتقي ان
فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن نقص والحاجة
الى الجبر بالنوافل فان لم تسلم صار ماخوذا بالفرائض وهلك بسبب ذلك فالمخلط احوج
الى الاخلاص كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاسب العبد يوم القيامة فان نقص فرضه قال
انظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع اكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع اخذ بطرفيه
فالقي في النار فياتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في
جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك الا بخلوص النوافل واما المتقي فجهده في
زيادة الدرجات فان حبط عمله بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذا

ينبغي ان يلزم نفسه حفظ اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا
يتحدث به ولا يظهره فاذا فعل ذلك ينبغي ان يكون وجلا من عمله خائفا انه ربما دخله من
الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكا في قبوله ورده مجوزا ان يكون الله قد احصى عليه
من نيته الخفية ما قد مقته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله
وبعده لا في ابتداء العقد بل ينبغي ان يكون متيقنا في الابتداء انه مخلص ما يريد بعمله الا الله
حتى يصح عمله فاذا شرع في العمل ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف
من الغفلة عن شائبة خفية احبطت عمله من رياء او عجب اولى به ولكن يكون رجاؤه اغلب
من خوفه لانه مستيقن انه دخل بالاخلاص وشك في انه هل افسده برياء فيكون رجاء القبول
اغلب وبذلك يعظم لذته في المناجاة والطاعات فالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه
لاجل ذلك الشك جدير بان يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه
والذي يتقرب الى الله بالسعي في حوائج الناس وافادة العلم ينبغي ان يلزم نفسه رجاء
الثواب بادخال السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على علم المتعلم بعلمه
فقط دون شكر ومكافاة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر
فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل او خدمة او مرافقة في طريق ليستكثر باستتباعه
فقد اخذ اجره فلا ثواب له غيره ذلك نعم ان لم يتوقع نفعه ولم يقصد الا الثواب
على عمله بعلمه ليكون له مثل اجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو
ان لا يحبط ذلك اجره اذا كان لا يريده ولا يستبعده منه لو قطعه ومع هذا فقد
كان العلماء يحذرون ذلك حتى ان بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فادلوا اليه حبلا ليرفعوه
فحلف عليهم لا يقف معهم من قرا عليه اية من القران او سمع منه حديثا خيفة من ان
يحبط اجره. وقال البلخي اهديت لسفيان الثوري ثوبا فرده فقلت يا ابا عبد الله لست
ممن قرا عليك حتى ترده قال علمت ذلك ولكن اخوك يسمع مني الحديث فاخاف ان
يميل قلبي لاخيك اكثر من غيره. وجاء رجل لسفيان ببدرة او بدرتين وكان ابوه صديقا له
وكان سفيان ياتيه كثيرا فقال له يا ابا عبد الله هل في نفسك من ابي شيء قال رحم الله

أباك وأنت عليه قال فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار إلى هذا المال فأحب أن تأخذ هذا
تستعين به على عيالك قال فقبل سفيان ذلك فلما خرج قال لي تعلق بابن المبارك الحقه فرده فرجع قال
له سفيان أحب أن تأخذ مالك ولم يزل به حتى رده عليه فكأنه حبس كانت صداقته لأبيه في
الله كره أن يأخذ ذلك منه لذلك بعد قال مبارك بن سفيان فلما خرج لم أملك نفسي أن قلت له ويلك
أي شيء قلبك حجر هو قدر أنه ليس لك عيال أما ترحمني أما ترحم أخوتي أما ترحم عيالنا فقال يريد يا
مبارك تأكلها هنيئا مريا وأسأل أنا عنها يوم القيامة لا والله فإذا يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب
التقرب من الله في اقتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه طلب حمد الله وثوابه
ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق وربما ظن أنه يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة
فيتعلم منه وذلك خطأ لأن إرادته غير الله بطاعته خسران في الحال والعلم ربما يفيد وربما لا
يفيد وكيف يخسر في الحال عملا متيقنا على توهم علم فذلك غير جائز بل ينبغي أن يتعلم لله
ويعبد الله ويخدم المعلم لله لا ليكون له منزلة في قلبه إن كان يريد بعلمه طاعة الله وكذلك كل
من يخدم أبويه لا يخدمهما لطلب منزلة عندهما لكن من حيث أن رضى الله في رضاهما ولا يجوز أن
يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله
عن ريائه ويسقط منزلته من قلب والديه أيضا وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي
أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده وتعظيمهم
محله فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته وإنما تشهوته معرفة
الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه قال إبراهيم بن أدهم
تعلمت المعرفة من سمعان الراهب دخلت عليه صومعته فقلت له كم لك في صومعتك قال سبعين
سنة قلت وما طعامك قال يا حنيفي وما دعاك إلى هذا فقلت أحببت أن أعلم قال في كل ليلة
حمصة واحدة أدعها في فمي حتى تضمحل قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة قال
ترى الدير الذي بحذائك قلت نعم قال إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتي
ويطوفون حولها ويعظموني فكلما ثقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأحتمل
جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد فوقرت في قلبي المعرفة فقال

حسبك أو أزيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة
وقال لي ادخل الدير فقد أبصروا ما دفعته لك فلما دخلت الدير اجتمعت إلي النصارى فقالوا يا حنيفي
ما الذي دفع لك الشيخ قلت هذا من قوته قالوا وما تصنع به نحن أحق به بعنا إياه فقلت عشرين
دينارا فأعطوني عشرين دينارا فرجعت إلى الراهب فأعلمته قال أخطأت لو ساومتهم
عشرين ألف دينار لأعطوك هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفي
أقبل على ربك ودع الذهاب والمجيء والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب
يكون باعثا في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة
سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم فيه
لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله
وإيمانه وإنه لو كان في عبادة فاطلع الناس عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله
سرور بسبب اطلاعهم عليه فإن دخله سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا اقتدر على
رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل السرور بالركون إليه فيرجى له
ألا يخيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كيلا ينبسطوا إليه
فلا بأس بذلك ولكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل
بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق غليظ من الله وهو أنه لو علم أن
انقباضهم عنه إنما يحصل بأن يعدو سريعا أو يأكل كثيرا أو يضحك فتسمح نفسه بذلك فإذا
لم تسمح بذلك وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مراده المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك
إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله ويعمل عمل من لو كان على وجه الأرض
وحده لكان يعمله ولا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها
فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان
أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عنده إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لإكرامه إلا
إذا كان في الغني زيادة علم أو ورع فيكون له مكرما لذلك الوصف لا للغنى فمن كان استرواحه
إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء وطامع والنظر للفقير يزيد في رغبة الآخرة ويحبب

الى ثقل المسكنة والنظر الى الاغنياء لانه كيف استروح الى الغنى لكنهما استروح الى الفقر
وقد حكي ان الاغنياء لم يروا في مجلس اذل منهم في مجلس سفيان الثوري رضي الله عنه كان يجلسهم وراء الصف
ويقدم الفقراء حتى يتمنون انهم فقراء في مجلسه نعم لك زيادة اكرام الغني اذا كان اقرب اليك او كان
بينك وبينه صداقة سابقة ولكن تكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تكرم الغني
عليه في اكرام وتوقير البتة فان الفقير اكرم على الله من الغني فايثارك له لا يكون الا طمعا ورياء
ثم اذا سويت بينهما في المجالسة فيبقى عليك ان تظهر الحكمة والخشوع اكثر مما تظهره للفقير
وانما ذلك رياء خفي او طمع خفي كما قال ابن السماك لجارية له ما لي اذا اتيت بغداد فتحت لي الحكمة
فقالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير
وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا
ينجيك منها الا ان تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد للشفقة على نفسك بقية عمرك
ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في ايام متقاربة وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا
قد امكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه
في كل ساعة لو اتسع في الشهوات وعلم انه لو احتمى وجاهد الاهوا شهوته عاش ودام ملكه
فلما عرف ذلك جالس الاطباء وعود نفسه شرب الادوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر
اكثر ملاذ الاطعمة فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة اكله ولكن اضطرابه يقل مهما نازعته نفسه
في شهوة تفكر في تواتر الالام وادائه ذلك الى الموت المفرق بينه وبين مملكته والموجب
لشماتة اعدائه ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيد منه من الصحة التي هي سبب
التمتع بملكه في عيش هنيء وبدن صحيح وامر نافذ فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات
فكذلك المؤمن المريد لملك الاخرة احتمى عن كل ما يهلكه في اخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزأ
منها بالقليل واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة
بالخلق خوفا من ان يغضب الله عليه فيهلكه ورجاء ان ينجو من عذابه فخف عليه ذلك كله عند شدة
يقينه وايمانه بما اعد له من النعيم المقيم في رضوان الله ابد الاباد ثم علم ان الله كريم رحيم لم يزل
لعباده الذين يطلبون مرضاته عونا وبهم رؤوفا ولو شاء لاغناهم عن التعب ولكن اراد ان

يبلوهم ويعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل المريد التعب في بدايته اقبل
الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الكد وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه
من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على اماتة الشهوات فان الكريم لا
يضيع اجر الراجي ولا يخيب امل المحب وهو الذي يقول من تقرب الي شبرا تقربت اليه
ذراعا ويقول لقد طال شوق الابرار الى لقائي واني الى لقائهم اشد شوقا فليظهر
العبد في البداية صدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده
وكرمه ورأفته ورحمته تم كتاب ذم الجاه والرياء بحمد الله وعونه

يتلوه كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب
التاسع من المهلكات من كتاب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم كتاب ذم الكبر والعجب

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده
واضع الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع
فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع الغني الذي ليس له في ملكه شريك ولا منازع
القادر الذي بهر ابصار الخلائق جلاله وبهاؤه وقهر العرش المجيد استواؤه واستيلاؤه
وحصر الالسن عن الابتهاج صفة ثنائه وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه
فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وانبياؤه وكسر ظهور الاكاسرة عزه
وعلاؤه وقصر ايدي القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة ازاره والكبرياء رداؤه
ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فاعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست اسماؤه
والصلاة على محمد الذي انزل معه النور المنتشر ضياؤه حتى اشرقت بنوره اكناف
العالم وارجاؤه وعلى اله واصحابه الذين هم احباء الله واولياؤه وخيرته واصفياؤه
اما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي
فمن نازعني فيهما قصمته وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع
واعجاب المرء بنفسه فالكبر والعجب داءان مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان

وهما عند الله ممقوتان مبغضان، واذا كان المقصود في هذا الربع من كتاب
احيا علوم الدين شرح المهلكات وجب ايضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح المرديات ونحن
نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين شطر في الكبر وشطر في العجب

الشطر الاول في الكبر وفيه بيان ذم الكبر وبيان ذم الاختيال

وبيان فضيلة التواضع وبيان حقيقة الكبر وافته وبيان من يتكبر عليه ودرجات الكبر
وبيان ما به التكبر وبيان البواعث على التكبر وبيان درجات المتواضعين وما فيه يظهر
التكبر، وبيان علاج الكبر وبيان امتحان النفس في خلوها من الكبر وبيان خلق التواضع و
المذموم منه، **بيان ذم الكبر** قد ذم الله الكبر في مواضع وذم كل متكبر جبار
فقال تعالى ساصرف عن اياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق، وقال عز وجل كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر
جبار، وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، وقال تعالى انه لا يحب المستكبرين
وقال لقد استكبروا في انفسهم الاية، وقال ان الذين يستكبرون عن عبادتي الاية وذم الكبر
كثير في القران، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان، وعنه صلى الله
عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما القيته في جهنم
والتقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو على المروة فتواقفا فمضى ابن عمرو واقام ابن عمر يبكي
قالوا ما يبكيك قال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول من كان في قلبه
مثقال حبة خردل من كبر اكبه الله في النار على وجهه، وقال صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل
يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما اصابهم من العذاب، وقال سليمان بن
داود عليهما السلام يوما للطير والجن والانس والبهائم اخرجوا فخرجوا في مائتي الف من
الانس ومائتي الف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح ثم خفض حتى مست
قدماه البحر فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به ابعد مما
رفعته، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان
تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع

الله الها اخر وبالمصورين، وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا
سيئ الملكة، وقال صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين
والمتجبرين وقالت الجنة ما لي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله تعالى
للجنة انما انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي وقال للنار انما انت عذابي اعذب بك
من اشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها، وقال صلى الله عليه وسلم بئس العبد عبد تجبر
واعتدى ونسي الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال بئس العبد
عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدا والمنتهى
وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم ما اعظم كبر فلان فقال اليس بعده الموت، وقال صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام
لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال اني امركما باثنتين وانهاكما عن اثنتين انهاكما عن
الشرك والكبر وامركما بلا اله الا الله فان السموات والارض وما فيهن لو وضعت
في كفة ووضعت لا اله الا الله في كفة كانت ارجح وامركما بسبحان الله وبحمده فانها
صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء، وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت
جبارا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في مثل صور الرجال
يعلوهم كل شيء من الصغار ثم يساقون الى سجن في جهنم يسقون من عصارة اهل النار
وقال صلى الله عليه وسلم يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطاهم
الناس لهوانهم على الله، وقال صلى الله عليه وسلم من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث
دخل الجنة الكبر، والغلول، والدين، **الاثار** قال ابو بكر رضي الله عنه لا يحقرن
احد احدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير، وقال وهب لما خلق الله جنة
عدن قال لها انت حرام على كل متكبر، وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن
الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فزحمه
بعض الزحمة فراى اثر ذلك فيه فقال عجبا لابن ادم يتكبر وقد خرج من مخرج البول
وقال الحسن العجب لابن ادم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة او مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات
وقيل في تفسير قوله تعالى وفي انفسكم افلا تبصرون انه سبيل الغائط والبول وقال

محمد بن الحسين العسكري ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر الا نقص من عقله بقدر ذلك قل او كثر وسئل
سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة قال الكبر وقال النعمان بن بشير ان للشيطان مصايد وفخو
خا وان منها البطر بانعم الله والفخر باعطا الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله
بيان ذم الاختيال واظهار اثار الكبر في المشي وجر الثياب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل يتبختر في بردته اذ اعجبته نفسه
خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلا لم ينظر الله
يوم القيامة وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم بصق يوما في كفه ووضع اصبعه عليها وقال يقول الله تعالى
ابن ادم اتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض
منك وئيد جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت اتصدق وانى اوان الصدقة وقال
صلى الله عليه وسلم اذا مشت امتي المطيطا وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض
وقال صلى الله عليه وسلم من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان
الاثار قال ابو بكر الهذلي بينما نحن مع الحسن اذ مر علينا ابن الاهتم يريد المقصورة وعليه
جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر
اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال اف اف شامخ بانفه ثاني عطفه مصعر خده ينظر في عطفيه
اي حميق انت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير الماخوذ بامر الله
فيها ولا المودي حق الله منها والله ان يمشي احدهم الا وينظر في عطفيه يتجلجل تجلجل المجنون
في كل عضو من اعضايه لله عليه نعمة وللشيطان به لعنة فسمعه ابن الاهتم فرجع يعتذر اليه
فقال لا تعتذر وتب الى ربك اما سمعت قوله تعالى ولا تمش في الارض مرحا الاية
ومر بالحسن شاب عليه بردة حسنة فدعاه فقال ابن ادم معجب بشبابه محب لشمايله
كان القبر قد وارى بدنك وكانك قد لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله من العباد
صلاح قلوبهم وحج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبل ان يستخلف فنظره طاوس يختال
في مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال ليس هذه مشية من في بطنه خرو فقال عمر كالمعتذر
يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها وراى محمد بن واسع ولده يختال

فقال له اتدري من انت اما امك فاشتريتها بمايتي درهم واما ابوك فلا اكثر الله في المسلمين مثله
وراى ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا قالها ثلاثا وراى مطرف بن عبد الله رضي الله عنه
المهلب يتبختر في جبة خز فقال له هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب اما تعرفني
فقال بلى اعرفك اولك نطفة مذرة واخرك جيفة قذرة وانت بين ذلك تحمل العذرة فترك
مشيته وقال مجاهد في قوله ثم ذهب الى اهله يتمطى اي يتبختر **بيان فضيلة التواضع**
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله تعالى
وقال صلى الله عليه وسلم ما من احد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فان رفع نفسه
جبذاها ثم قالا اللهم ضعه فان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم طوبى
لمن تواضع في غير مسكنة وانفق مالا جمعه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة
وخالط اهل الفقه والحكمة وروى ابو سلمة المديني عن ابيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
عندنا بقبا وكان صايما فاتيناه عند افطاره بقدح من لبن فيه شي من عسل فلما ذاقه
وجد فيه حلاوة العسل فقال ما هذا قلنا يا رسول الله خلطناه بشي من عسل فوضعه
وقال اما اني لا احرمه من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد اغناه
الله ومن بذر افقره الله ومن اكثر ذكر الله احبه الله وكان صلى الله عليه وسلم في بيته
ياكل مع نفر من اصحابه فقام سايل بالباب به زمانة تتكره منها فلما دخل اجلسه النبي صلى الله عليه وسلم
على فخذه ثم قال له كل فكان بعضهم اشمأز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى
كانت به زمانة مثلها وقال صلى الله عليه وسلم خيرني ربي بين امرين عبدا رسولا
او ملكا نبيا فلم ادر ايهما اختار وكان صفيي من الملايكة جبريل عليه السلام فرفعت راسي
فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا واوحى الله الى موسى عليه السلام انما اقبل صلاة
من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي والزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري
وكف نفسه عن الشهوات من اجلي وقال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف
في التواضع واليقين الغنى وقال عيسى عليه السلام طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب
المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة

طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا الذين ينظرون الى الله يوم القيامة * وقال رسول الله اذا هدى
الله عبدا للاسلام وحسن صورته وجعله فى موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك
من صفوة الله * وقال صلى الله عليه وسلم اربع لا يعطيهن الله تعالى الا من يحب الصمت وهو اول
العبادة والتوكل على الله والتواضع لله والزهد فى الدنيا * وقال صلى الله عليه وسلم اذا تواضع
العبد رفعه الله الى السما السابعة * وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد الا رفعة
فتواضعوا رحمكم الله * وقال عليه السلام انه ليعجبنى ان يحمل الرجل الشى فى يده يكون مهنة
لاهله يدفع به الكبر عن نفسه * وكان صلى الله عليه وسلم يأكل مع قوم فجاء رجل اسود به
جدرى قد تقشر فجعل لا يجلس الى احد الا قام من جنبه فاجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى
جنبه * وقال صلى الله عليه وسلم يوما لاصحابه مالى لا ارى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما هى
قال التواضع * وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم المتواضعين من امتى فتواضعوا لهم واذا رايتم
المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار * الاثار * قال عمر رضى الله عنه
ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله واذا تكبر وعلا
طوره وضعه الله الى الارض وقال اخسا اخزاك الله فهو فى نفسه كبير وفى اعين الناس
حقير * وقال جرير بن عبد الله انتهيت الى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له
وجاوزت الشمس النطع فسويته عليه فاستيقظ فاذا هو سلمان الفارسى رضى الله عنه
فذكرت له ما صنعت فقال يا جرير تواضع لله فى الدنيا فانه من تواضع لله فى الدنيا رفعه
الله يوم القيامة يا جرير اتدرى ما ظلمة النار يوم القيامة قلت لا قال ظلم الناس بعضهم
بعضا فى الدنيا * وقالت عائشة رضى الله عنها انكم تغفلون عن افضل العبادة التواضع
وقال يوسف بن اسباط يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير
الاجتهاد * وسيل الفضيل عن التواضع فقال ان تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته
من صبى او من اجهل الناس قبلته * وقال ابن المبارك راس التواضع ان تضع نفسك
عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه انه ليس لك بدنياك عليه فضل وان ترفع نفسك
عمن فوقك فى الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضلا * وقال قتادة من اعطى مالا

او جمالا او ثيابا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا * واوحى الله تعالى الى عيسى اذا انعمت
عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة اتممها عليك * وقال كعب ما انعم الله على عبد نعمة فى
الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله الا اعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى
الاخرة وما انعم الله على عبد نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله الا منعه الله تعالى
نفعها فى الدنيا وفتح له بابا من النار يعذبه به ان شاء او يتجاوز عنه * وقيل لعبد الملك
بن مروان اى الرجال افضل قال من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وترك النصرة
عن مقدرة * ودخل ابن السماك على الرشيد فقال يا امير المؤمنين تواضعك فى شرفك اشرف
لك من شرفك فقال ما احسن ما قلت فقال له يا امير المؤمنين ان امرا اتاه الله جمالا فى
خلقته وموضعا فى حسبه كتب فى ديوان الله من خاصة الله * وكان سليمان عليه السلام اذا
اصبح تصفح وجوه الاغنيا والاشراف حتى يجى الى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين
مع مساكين * وقال بعضهم كما تكره ان يراك الاغنيا فى ثياب دون فاكره ان يراك الفقرا
فى ثياب رفيعة * وروى انه خرج يونس وايوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال
لهم الحسن اتدرون ما التواضع هو ان تخرج من منزلك فلا تلقى مسلما الا رايت
له عليك فضلا * وقال مجاهد لما اغرق الله قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى
فرفعه الله فوقها وجعل قرار السفينة عليه * وقال ابو سليمان ان الله اطلع على
قلوب الادميين فلم يجد قلبا اشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه الله تعالى
بكلامه * وقال يونس بن عبيد وقد انصرف مع الحاج من عرفات لم اشك فى الرحمة
لهم لولا انى معهم فانى اخشى ان يحرموا بسببى * وقيل ارفع ما يكون المؤمن عند الله
اوضع ما يكون عند نفسه واوضع ما يكون عند الله ارفع ما يكون عند نفسه
وقال زياد زاهد بلا تواضع كشجرة لا تثمر * وقال ابن دينار لو ان منادينا ينادى
بباب المسجد ليخرج شركم رجلا ما كان يسبقنى احد الى الباب الا رجل بفضل
قوة او سعى فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا * وقال الفضيل
من احب الرياسة لم يفلح ابدا * وقال موسى بن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمرا

فذهبت الى محمد بن مقاتل وقلت يا ابا عبد الله انت امامنا فادع الله لنا فبكى ثم قال ليتني لم اكن سبب هلاككم قال فرايت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال لي ان الله تعالى دفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل رضي الله عنه وجاء رجل الى الشبلي فقال له الشبلي ما انت وكان هذا دابه فقال انا النقطة التي تحت البا فقال له الشبلي ابادك الله او تجعل لنفسك مكانا وقال من راى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وقال الفتح بن شخرف رايت علي بن ابي طالب في النوم فقلت له يا ابا الحسن عظني فقال ما احسن التواضع بالاغنيا في مجالس الفقرا رغبة منهم في ثواب الله واحسن من ذلك تيه الفقرا على الاغنيا ثقة منهم بما عند الله تعالى وقال ابو سليمان لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال ابو يزيد ما دام العبد يظن ان في الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل له فمتى يكون متواضعا فقال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه وبنفسه وقال ابو سليمان لو اجتمع الخلق على ان يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه وقال عروة بن الورد التواضع احد مصايد الشرف وكل نعمة صاحبها محسود عليها الا التواضع وقال يحيى البرمكي الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ التكبر على المتكبر عليك بماله تواضع وقيل التواضع حسن في الخلق لكنه في الاغنيا احسن والكبر في الخلق قبيح وفي الفقرا اقبح وقيل لا عز الا لمن ذل لله ولا رفعة الا لمن تواضع لله ولا امن الا لمن خاف الله ولا ربح الا لمن ابتاع نفسه من الله وقال ابو علي الجوزجاني النفس معجونة بالحرص والكبر والحسد فمن اراد الله هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة واذا اراد الله به خيرا لطف به في ذلك فاذا هاجت في نفسه نار الكبر ادركها التواضع مع نصرة الله واذا هاجت نار الحسد في نفسه ادركتها النصيحة مع توفيق الله واذا هاجت في نفسه نار الحرص ادركتها القناعة مع عون الله تعالى وقال الجنيد يوما في مجلسه لولا انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يكون في اخر الزمان زعيم القوم ارذلهم ما تكلمت عليكم وقال ايضا رضي الله عنه التواضع عند اهل التوحيد تكبر ولعل مراده ان المتواضع يثبت نفسه

ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها او يرفعها وقال عمرو بن شيبة رايت بين الصفا والمروة رجلا على بغلة وبين يديه غلمان يطردون الناس ثم دخلت بغداد فاذا انا برجل حاف حاسر الراس شعث الحال فجعلت انظر اليه واتامله فاذا هو الرجل الذي رايته بمكة فقلت له ما فعل الله بك فقال لاني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس وقال المغيرة كنا نهاب ابراهيم النخعي كما نهاب الامير وكان يقول ان زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سو وكان عطا السلمي اذا سمع صوت الرعد قام وقعد واخذ بطنه كانه امراة ماخض وقال هذا من اجلي يصيب الناس لو مات عطا لاستراح الناس وكان بشر الحافي يقول سلموا على ابنا الدنيا بترك السلام عليهم وقال رجل لعبد الله بن المبارك اعطاك الله ما ترجو فقال ان الرجا يكون بعد المعرفة واين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي فقال سلمان رضي الله عنه لكني خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم الى الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم وقال ابو بكر رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع

بيان حقيقة الكبر وآفته

الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو اعمال تصدر من الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن احق واما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى روية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سياتي فان العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور ان يكون معجبا ولا يتصور ان يكون متكبرا الا ان يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفي ان يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره اعظم من نفسه او مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا

بل لا بد ان يستحقر غيره فانه مع ذلك لو راى نفسه احقر لم يتكبر ولو راى غيره مثل نفسه لم
يتكبر بل بان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرا مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند
هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا ان هذه الرؤية هي الكبر بل هذه الرؤية
وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه هزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز
في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى المعتقد هو خلق الكبر ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم نعوذ بك من نفخة الكبرياء وكذلك قال عمر رضي الله عنه اخشى ان تنتفخ حتى
تبلغ الثريا للذي استاذنه ان يعظ الناس وكان الانسان مهما راى نفسه بعين الاستعظام
انتفخ وتعزز وتكبر فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات
ويسمى الكبر ايضا عزة وعظمة ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم
ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها ثم هذه العزة تقتضي اعمالا في الظاهر والباطن هي ثمراتها
ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه
واقصاه عن نفسه وابعده وترفع عن مجالسته ومواكلته وراى حقه ان يقوم ماثلا
بين يديه ان اشتد كبره فان كان اشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يره اهلا
للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته وان كان دون ذلك انف عن مساواته وتقدم عليه
في مضايق الطريق وارتفع عليه في المحافل وانتظر ان يبدأه بالسلام وان حاج او ناظر
انف ان يرد عليه وان وعظ استنكف عن القبول وان وعظ عنف في النصح وان
رد عليه شيء من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم
واذا نظر الى العامة فكانه ينظر الى الحمير استجهالا لهم وتحقيرا والاعمال الصادرة عن
خلق الكبر كثيرة وهي اكثر من ان تحصى فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه
يهلك اكثر الخواص من الخلق وقل ما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن العوام
وكيف لا تعظم آفته وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال
ذرة من كبر وانما صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين العبد وبين اخلاق المؤمنين
كلها وتلك الاخلاق هي ابواب الجنة والكبر وعز النفس يغلق تلك الابواب كلها

لانه لا يقدر على ان يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ولا يقدر على التواضع وهو
راس اخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على
ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف ولا
على قبول النصح ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وفي علم فرد ذلك العز ولا معنى للتطويل
فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود
الا وهو عاجز عنه خوفا من ان يفوته عزه فعلى هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال
حبة والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة وشر انواع
الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفي ذلك وردت الايات
التي فيها ذم المتكبرين قال الله تعالى والملائكة باسطوا ايديهم الى قوله وكنتم عن آياته تستكبرون
ثم قال ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم اخبر ان اشد اهل
النار عذابا اشدهم عتيا على الله فقال ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا
وقال تعالى والذين لا يؤمنون بالاخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال تعالى ان الذين
يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى ساصرف عن آياتي الذين
يتكبرون في الارض بغير الحق قيل في التفسير سارفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي سأحجب
قلوبهم عن الملكوت وقال ابن جريج ساصرفهم عن ان يتفكروا فيها ويعتبروا بها
ولذلك قال عيسى عليه السلام ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا كذلك الحكمة
تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الا ترون ان من شمخ براسه الى السقف
شجه ومن طاطا اظله فهذا مثال ضربه للمتكبرين وانهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك
ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال من سفه
الحق وغمص الناس. **بيان المتكبر عليه** واقسامه ودرجاته
وثمرات الكبر فيه اعلم ان المتكبر عليه هو الله تعالى او رسله او سائر الخلق وقد خلق
الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة على الخالق فاذا التكبر باعتبار
المتكبر عليه ثلاثة اقسام الاول التكبر على الله وهو افحش انواع الكبر ولا مثار له الا الجهل

المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانه كان يحدث نفسه بانه يقاتل رب السماء وكما
يحكى عن كثير ممن ادعى الربوبية ومثل فرعون فانه قال لتكبره انا ربكم الاعلى اذ استنكف
ان يكون عبدا لله ولذلك قال الله تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين
وقال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون الى قوله وليا ولا نصيرا
وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن الاية

القسم الثاني التكبر على الرسل وذلك
من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن
الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق في ذلك
وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما اخبر
الله عنهم انؤمن لبشرين مثلنا ان انتم الا بشر مثلنا ولئن اطعتم بشرا مثلكم الاية وقوله تعالى
لولا انزل عليه ملك وقال تعالى حكاية عن فرعون واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق
وقال وهب قال له موسى عليه السلام يا فرعون آمن ولك ملكك قال حتى اشاور هامان فشاوره
فقال له بينا انت رب تعبد اذ ترجع عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع
موسى عليه السلام وقالت قريش لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد
ابن المغيرة وابا مسعود الثقفي طلبوا من هو اعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم اذ قالوا
غلام يتيم كيف يبعثه الله الينا فقال الله تعالى اهم يقسمون رحمة ربك وقال الله تعالى
ليقولوا اهؤلاء من الله عليهم من بيننا استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت
قريش عند مجلس النبي وعنده هؤلاء الفقراء ازدراء بهم وتكبرا عن مجالستهم فا
نزل الله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الاية واخبر الله عن تعجبهم
حين دخلوا جهنم ولم يروا الذين استرذلوهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم
من الاشرار يعني بلالا وعمارا وصهيبا والمقداد ثم كان منهم من منعه
الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كون النبي صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف
ذلك ومنعه الكبر من الاعتراف قال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال
تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا وهذا الكبر قريب من التكبر على الله

وان كان دونه فهو تكبر عن قبول امر الله وعن التواضع لرسله. **الثالث** التكبر
على الخلق بان يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن المطاوعة لهم وتدعوه الى
الترفع عليهم فيستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون الاول والثاني
فهو ايضا عظيم من وجهين احدهما ان الكبر والعز والعلاء لا يليق الا بالملك القادر
فاما العبد المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن اين يليق به الكبر فمهما تكبر العبد
فقد نازع الله في صفة لا تليق الا بجلاله تعالى ومثاله ان يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه
على راسه ويجلس على سريره فما اجدره بالمقت وما احقه بالخزي والنكال وما اشد
استجراءه على مولاه وما اقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى العظمة
ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته اي انه خاص صفتي ولا يليق الا
بي والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي واذا كان الكبر على عباده لا يليق
الا به تعالى فمن تكبر عليهم فقد جنى عليه اذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك
ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك ان يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض
امره وان لم تبلغ درجته درجة من اراد الجلوس على سريره والتلذذ بملكه
فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد
نازع الله في حقه نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون
ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين
منازعته في اصل الملك. **الوجه الثاني** الذي تعظم به رذيلة الكبر انه يدعو
الى مخالفة الله في اوامره لان المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف
عن قبوله وتشمر لجحوده ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون انهم يتبا حثون
في اسرار الدين ثم انهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم
انف الاخر عن قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وهذا
من اخلاق الكفرة والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا
لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق

الحق اذا ظهر به فقد شارك في هذا الخلق وكذلك من حمله ذلك على الانفة عن قبول النصيحة
او الوعظ فهو من الكفار واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم وروي عن عمر رضي الله عنه
انه قرا هذه الاية فقال انا لله وانا اليه راجعون قام رجل يامر بالمعروف فقتل فقام اخر
فقال اتق الله فاخذته العزة بالاثم فقال بل ويقتلون الذين يامرون بالقسط من الناس
فقتل المتكبر الذي خالفه والذي امره كبرا وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بالرجل اثما اذا
قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك فقال لا
استطيع فقال عليه السلام لا استطعت فما منعه الا الكبر قيل فما رفعها بعد ذلك اي اعتلت
يده فاذا تكبره على الخلق عظيم لانه سيدعوه الى التكبر على امر الله تعالى وانما ضرب ابليس
مثلا لهذا وما حكى من احواله الا ليعتبر به فانه قال انا خير منه وهذا الكبر بالنسب
لانه قال خلقتني من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على ان يمتنع من السجود الذي
امره الله به فكان مبداه التكبر على ادم والحسد له فجره ذلك الى التكبر على امر الله
وكان ذلك سبب هلاكه ابد الاباد فهذه افة من افات الكبر على العباد عظيمة
ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الافتين اذ ساله ثابت ابن قيس فقال
يا رسول الله اني امرؤ قد حبب الي من الجمال ما ترى افمن الكبر هو فقال لا ولكن الكبر
من بطر الحق وغمص الناس وقوله غمص الناس اي ازدراهم واستحقرهم وهم
عباد الله امثاله او خير منه وهذه الافة الاولى وقوله سفه الحق اي رده وهي
الافة الثانية فكل من راى انه خير من اخيه واحتقر اخاه او رد الحق وهو يعرفه
فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن انف ان يخضع لله ويتواضع له بطاعته
واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله

بيان ما به التكبر

اعلم انه لا يتكبر الا من استعظم نفسه ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من
صفات الكمال ومجامع ذلك يرجع الى كمال ديني او دنيوي والديني هو العلم
والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار فهذه سبعة
اسباب الاول العلم وما اسرع الكبر الى العلماء ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آفة
العلم الخيلاء

سفه

آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم ان يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم
وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم كالبهائم ويستجهلهم ويتوقع ان يبدؤه
بالسلام فاذا بدا احدا منهم بسلام او رد عليه ببشر او قام له او اجاب دعوته راى
ذلك صنيعة عنده ويدا عليه يلزمه شكرها واعتقد انه اكرمهم وانه فعل معهم
ما لا يستحقون وانه ينبغي لهم ان يخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب انهم يبرونه فلا
يبرهم ويزورونه فلا يزورهم فان قصر منهم مقصر استنكره كانهم عبيده وكان
تعليمه اياهم العلم صنيعة منه اليهم هذا فيما يتعلق بالدنيا واما في الاخرة فتكبره عليهم
بان يرى نفسه عند الله تعالى اعلى وافضل منهم فيخاف عليهم اكثر مما يخاف على نفسه
ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم وهذا بان يسمى جاهلا اولى من ان يسمى عالما
اذ العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة
الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سياتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذه
العلوم تزيده خوفا وتواضعا وتقتضي ان يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله
عليه وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال ابو الدرداء من ازداد علما
ازداد وجعا وهو كما قال فان قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وامنا
فاعلم ان لذلك سببين احدهما ان يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا
اذ العلم الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه وربه وخطر امره في لقاء الله والحجاب
عنه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والامن قال الله تعالى انما يخشى الله
من عباده العلماء فاما ما وراء ذلك كعلم اللغة والنحو والطب والشعر
والحساب وفصل الخصومات وطرق المجادلات فاذا تجرد الانسان لها حتى
يمتلي منها امتلى بها كبرا ونفاقا وهذه العلوم بان تسمى صناعات اولى من ان
تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذا
يورث التواضع غالبا السبب الثاني ان يخوض العبد في العلم وهو
خبيث الدخلة ردي النفس سيء الخلق فانه لم يشتغل اولا بتهذيب نفسه وتزكية

قلبه بأنواع المجاهدات ولم يروض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم
أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم تطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره وقد ضرب
وهب لهذا مثلاً فقال العلم كالغيث ينزل من السماء عذباً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها
فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة وكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله
على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً وهذا لأن من كانت
همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً وإذا كان الرجل خائفاً
مع جهله فإذا ازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وتواضعاً وذلاً
فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولهذا قال الله تعالى لنبيه عليه السلام واخفض جناحك للمؤمنين
وقال تعالى ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ووصف أولياءه فقال تعالى
أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون قوم
يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم التفت
إلى أصحابه فقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار وكذلك قال عمر رضي الله عنه لا
تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم واستأذنه تميم الداري في القصص فأبى
وقال إنه الذبح واستأذنه إمام قوم أن يذكرهم إذا سلم من صلاته فقال إني أخاف أن
تنتفخ حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة رضي الله عنه بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلتمسن إماماً أو
صلوا وحداناً فإني رأيت في نفسي أني أفضل القوم فإذا كان مثل حذيفة لم يسلم فكيف
يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة فما أعز على بسيط هذه الأرض من عالم يستحق أن يقال
إنه عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق وقته فلا ينبغي
أن يفارق فالنظر إليه عبادة فضلاً عن الاقتباس من أنفاسه وأحواله ولو عرفناه في أقصى
الصين سعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وهيهات أن يسمح آخر الزمان
بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول وقد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم بل يعز
في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف على فوات هذه الخصلة فذلك أيضاً معدوم وإما عزيز
ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه

نجا لكنا جديرين أن نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن فيه من سوء أعمالنا
ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشره فنسأل الله أن يعاملنا
بما هو أهله وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضله وكرمه. **الثاني** العمل والعبادة
وليس يخلو عن رذيلة الكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين
والدنيا أما الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون
قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم وتوسيع المجالس لهم وذكرهم بالورع وتقديمهم
على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على
الخلق وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك
حقيقة مهما رأى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو
أهلكهم وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكر
الله غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم
كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته
ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى
الله بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتبعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا
أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم أن ينقله الله
إلى الإهمال كما روي أن رجلاً من بني إسرائيل يقال له خليع بني إسرائيل لكثرة فساده مر برجل
آخر يقال له عابد بني إسرائيل وكانت على رأس العابد غمامة تظله فلما مر به الخليع فقال الخليع
في نفسه أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه عسى الله يرحمني فجلس إليه
فقال العابد أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل كيف يقعد معي فأنف منه وقال له قم
عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل
العابد ثم تحولت الغمامة على رأس الخليع فهذا يعرفك أن الله إنما يريد من العبيد قلوبهم
فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وخوفاً منه وانكساراً لأجل معصيته فقد
أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب فإنه عاص بقلبه وكذلك

روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال له ارفع فوالله لا
يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه أيها المتألي علي بل أنت لا يغفر الله لك
ولذلك قال الحسن وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرف الخز أي أن صاحب
الخز يذل لصاحب الصوف ويرى له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة
أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد وذلك أنه لو استخف به مستخف أو
آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله لمن فعل به ذلك ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله
ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو
جهل وجمع بين الجهل والكبر والاغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم
إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه فإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من
كراماته وأن الله انتقم له مع أنه يرى طوائف من الكفار يسبون الله ورسوله و
عرف جماعة آذوا الأنبياء وقتلوهم ثم أن الله أمهلهم ولم يعاقبهم في الدنيا
بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة أفيظن هذا المغرور أنه
أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له ولعله في مقت الله بكبره وإعجابه
وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين فأما الأكياس من العباد فيقولون
ما كان يقوله عطا السلمي إذا ارتجت أو صاعقة ما يصيب الناس هذا إلا بسببي
ولو مت لتخلصوا وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات كنت أرجو الرحمة لهم لولا
كوني معهم فانظر إلى الفرق بين الحالتين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً وهو وجل على
نفسه مزدرٍ لعمله وذلك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة
للشيطان به ثم إنه يمن بعمله على الله ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد
الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد
العبد عن الله وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من
مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير عند
النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال إني أرى

في وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أسألك حدثتك نفسك
أن ليس في القوم أفضل منك فقال اللهم نعم فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه
سفعة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله لكن
العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات الأولى أن يكون الكبر مستقراً في قلبه
يرى نفسه خيراً من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً منه
وهذا قد رسخت في قلبه شجرة الكبر لكنه قطع أغصانها بالكلية الدرجة الثانية
أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر
في حقه وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن
يعبس وجهه ويقطب جبهته كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم ولم يعلم المسكين
أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر
ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم إنما الورع في القلب وقال صلى الله عليه وسلم
التقوى هاهنا وأشار إلى صدره فقد كان صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وأوسعهم
خلقاً وأكثرهم بشراً وانبساطاً ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب النبي صلى الله عليه وسلم
يعجبني من القراء كل طلق مضحاك فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس فكأنه يمن
بعمله عليك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله يرضى بذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم
هم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه
إلى الدعاوي والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة
غيره في العلم والعمل أما العابد فيقول في معرض التفاخر على غيره من العباد من هو
وما عمله ومن أين زهده فيطول لسانه فيه بالتنقص ثم يثني على نفسه ويقول
إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام وأختم القرآن كل يوم وفلان ينام ولا يكثر القراءة
وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض وما
يجري مجراه فيدعي الكرامة لنفسه وأما مباهاته فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون

بالليل فلم يصلي اكثر من عادته وان كان في البصرة لم يصبر على الجوع تكلف ذلك ويزيد ليظهر لهم قوته
وعجزهم وكذلك يجتهد في القيام لئلا يقال غيره اقوى منه في دين الله واما العالم فيتفاخر ويقول
انا متفنن في العلوم مطلع على الحقائق رايت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن انت
وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث وقرات من الروايات يعظم نفسه
ويصغر غيره ويجتهد في المناظرة ليغلب ولا يغلب ويحرر ليلا ونهارا في تحصيل علوم
يتجمل بها في المحافل ويحسن العبارة ويسجع لفظه ويحفظ الوجوه الغريبة ليغرب بها على
الاقران ويتعظم عليهم ويحفظ الحديث واسانيده حتى يرد على من لم يعرف ذلك
فيظهر فضله ونقصان غيره ويفرح متى اخطا واحد ويسوءه اذا اصاب فهذه كلها
اخلاق الكبر واثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل واين من يخلو عنها او عن بعضها
فليت شعري من عرف هذه الاخلاق من نفسه وسمع يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره
وهو يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل النار وانما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عن هذا
لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم ان الله قال له ان لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك
قدرا فان رايت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا فاسم العالم عليه غلط
ومن علمه يلزمه ان لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا البتة فهذا هو الكبر بالعلم والعمل
الثالث التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له
ذلك وان كان اكثر منه علما وعملا وقد يتكبر بعضهم فيرى ان الناس له عبيد فيانف
من مخالطتهم ومجالستهم وثمرة ذلك على اللسان التفاخر فيقول لغيره يا نبطي يا هندي من انت
من ابوك انا فلان بن فلان هل مثلك يكلمني ونحو هذا وذلك عرق دفين في النفس
لا ينفك عنه نسيب وان كان عاملا صالحا الا انه قد يترشح ذلك عند اعتدال الاحوال
فان غلبه الغضب اطفاه نور بصيرته كما روي ان ابا ذر قال قاولت رجلا عند النبي صلى
الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا ذر طف الصاع طف الصاع
ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل قال ابو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطا على خدي

رضي الله عنه

فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه راى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وان ذلك خطا وجهل فانظر
كيف تاب وكيف قلع عن نفسه شجرة الكبر باخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف ان العز لا
يقمعه الا الذل ومن ذلك ما روي ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال احدهما
للاخر انا فلان بن فلان فمن انت لا ام لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند
موسى عليه السلام فقال احدهما انا فلان بن فلان حتى عد تسعة فاوحى الله الى موسى عليه السلام
قل للذي افتخر ان التسعة في النار وانت عاشرهم وقال صلى الله عليه وسلم ليدعن قوم الفخر
بابائهم وقد صاروا فحما في جهنم او ليكونن اهون على الله من الجعلان التي تدوف
بانافها القذر **الرابع** التفاخر بالجمال وذلك يجري اكثره بين النساء ويدعو
ذلك الى التنقص والغيبة وذكر عيوب الناس كما روي عن عائشة رضي الله عنها
قالت دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم امراة فقلت بيدي هكذا اي انها قصيرة
فقال صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها وهذا منشؤه خفي الكبر لانها لو كانت ايضا قصيرة
لما ذكرتها بالقصر فكانها اعجبت بقامتها واستقصرت المراة في جنب نفسها فقالت
ما قالت **الخامس** الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين
التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في اراضيهم وبين المتجملين في لباسهم ومراكبهم
فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له انت مكد ومسكين لو اردت انا لا شتريت
مثلك واستخدمت من هو فوقك من انت وما معك واثاث بيتي يساوي جميع مالك
واغني وانا انفق في اليوم ما تنفقه انت في مدة سنة وكل ذلك لاستعظامه الغنى
واستحقاره الفقر وذلك جهل منه بافة الغنى وفضيلة الفقر وهذا من قوله تعالى فقال
لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا حتى اجابه ان ترن انا اقل منك مالا
وولدا الى قوله طلبا وكان ذلك تكبرا منه بالمال والولد فبين الله عاقبة امره وهو
قوله يا ليتني لم اشرك بربي احدا ومن ذلك تكبر قارون كما اخبر الله بقوله فخرج على قومه
في زينته حتى قال قومه يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون **السادس** الكبر بالقوة وشدة
البطش والتكبر بها على اهل الضعف **السابع** التكبر بالاتباع والانصار والتلا مذة

والغلمان وبالعشيرة والاقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالطلبة وبالجملة فكل ما هو نعمة وامكن ان يعتقد كمالا وان لم يكن في نفسه كمالا امكن ان يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على اقرانه بكثرة معرفته وحذق صنعته لانه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب والفجور وحذق الدرهم في اخراجه فيه ويتكبر بذلك لظنه انه كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به الخلق بعضهم على بعض فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به او على من يدلي بما دونه في اعتقاده وربما كان مثله او فوقه عند الله كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو اعلم منه لظنه انه الاعلم ولحسن اعتقاده في نفسه

بيان البواعث على الكبر واسبابه المهيجة له

اعلم ان الكبر خلق باطن واما ما يظهر من الاخلاق والافعال فهي ثمرته ونتيجته وينبغي ان يسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب كما سياتي فانه اذا اعجب بنفسه وبعلمه وبعمله او بشيء من اسبابه استعظم نفسه وتكبر واما التكبر الظاهر فاسبابه ثلاثة سبب في المتكبر وسبب في المتكبر عليه وسبب يتعلق بغيرهما اما السبب الذي في المتكبر فهو العجب والذي في المتكبر عليه فهو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرهما هو الريا فتصير الاسباب بهذا الاعتبار اربعة العجب والحقد والحسد والريا اما العجب فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يورث التكبر الظاهر في الاعمال والاقوال والاحوال واما الحقد فانه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى انه مثله او فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فاورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان عنده مستحقا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه على التواضع لكبير لحقده عليه وبغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاءه من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى ان يجتهد في التقدم عليه وان علم انه لا يستحق ذلك وعلى ان لا يستحله وان ظلمه ولا يعتذر اليه وان جنى عليه واما الحسد

فانه ايضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذا وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد ايضا الى جحد الحق حتى يمنعه من قبول النصح وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه ان يستفيد من عالم من اهل بلده او اقاربه حسدا وبغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بانه يستحق التواضع له بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على ان يعامله باخلاق اهل الكبر وان كان في باطنه لا يرى نفسه فوقه واما الريا فهو ايضا يدعو الى اخلاق المتكبرين حتى ان الرجل ليناظر من هو افضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من ان يقول الناس هو افضل فيكون باعثه على التكبر عليه الريا المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه واما الذي يتكبر بالعجب او بالحقد او بالحسد فانه يتكبر ايضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمي الى نسب شريف كاذبا وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم انه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته انه كاذب في دعوى النسب لكن يحمله الريا على افعال المتكبرين فكان اسم الكبر انما يطلق في الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاستحقار وهذا ان سمي متكبرا فلاجل التشبه بافعال الكبر

بيان اخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه اثر التواضع والتكبر

اعلم ان التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزرا واطراق راسه وجلوسه متربعا او متكيا وفي حديثه ونغمته ويظهر في مشيته وفي حركاته وسكناته وفي تعاطيه لافعاله وفي سائر تقلباته واحواله ومن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له او بين يديه وقد قال علي كرم الله وجهه من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام وقال انس رضي الله عنه لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا راوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ومنها ان لا يمشي الا ومعه غيره يمشي خلفه قال ابو الدردا

التواضع

لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشي خلفه • وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف
من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم في مشي • ومشي قوم خلف الحسن رضي الله عنه فمنعهم وقال ما
يبقي من قلب العبد • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي مع الاصحاب فيامرهم بالتقدم
ويمشي في غمارهم اما لتعليم غيره او لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالتكبر
والعجب كما ازال الثوب الجديد في الصلاة وابدله بالخليع لاجل هذين المعنيين ومنها
الا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وذلك ضد التواضع
روي ان سفين الثوري رحمه الله قدم الرملة فبعث ابراهيم بن ادهم رضي الله عنه اليه
ان تعال حدثنا فجاء سفين فقال له بعض اصحابه يا ابا اسحق تبعث اليه بمثل هذا فقال
اردت انظر تواضعه • ومنها ان يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا ان
يجلس بين يديه والتواضع خلاف ذلك • قال وهب رضي الله عنه جلست الى عبد العزيز بن ابي
رواد رضي الله عنه فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فجر ثيابي وقال لم تفعلون بي ما تفعلون
بالجبابرة والله اني لا اعرف رجلا منكم شرا مني • وقال انس رضي الله عنه كانت الوليدة من
ولائد المدينة تاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب حيث
شاءت • ومنها ان يتوقى مجالسة المرضى والزمني ويتحاشى عنهم وذلك كبر • دخل
رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده اصحابه يأكلون فما
جلس عند احد الا قام من جانبه فاجلسه النبي صلى الله عليه وسلم بجنبه • وكان عبد الله
بن عمر رضي الله عنهما اذا احضر طعامه ورأى مجذوما مبتلى اجلسه على مائدته • ومنها
الا يتعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلاف ذلك • روي ان عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه اتاه ليلة ضيف وكان يكتب كتابا فكاد السراج يطفى فقال الضيف ان
اصلحه فقال ليس من كرم الرجل ان يستخدم ضيفه قال فانبه الغلام فقال عمر هي
اول نومة نامها فقام عمر رضي الله عنه فاخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف تفعل
يا امير المؤمنين فقال قمت وانا عمر ورجعت وانا عمر خير الناس من كان عند الله متواضعا
ومنها الا ياخذ متاعه ويحمله الى بيته وذلك خلاف عادة المتواضعين • كان رسول الله

يفعل ذلك • وقال علي لا ينقص الكامل من كماله • ما جر من نفع الى عياله • وكان ابو عبيدة بن الجراح
وهو امير يحمل سطلا له من خشب الى الحمام • وقال ثابت بن ابي مالك رايت ابا هريرة رضي الله عنه
اقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال اوسع الطريق للامير يا ابن
ابي مالك • وقال الاصبغ بن نباتة كاني انظر الى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى
وفي يده اليمنى الدرة يدور في الاسواق حتى دخل بيته • وقال بعضهم رايت عليا رضي الله عنه
اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت احمل عنك يا امير المؤمنين فقال لا ابو العيال
احق بان يحمل لعياله • ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع • وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
البذاذة من الايمان • قال هارون سالت ما معنى البذاذة فقيل هو الدون من اللباس
وقال زيد بن وهب رايت عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق وعليه ازار فيه اربع عشرة
رقعة بعضها من ادم • وعوتب علي رضي الله عنه في ازار مرقوع كان يلبسه فقال يقتدي
به المؤمن ويخشع له القلب • وقال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب • وقال
طاوس اني لاغسل ثوبي فانكر قلبي ما دام نقيا • وروي ان عمر بن عبد العزيز كان
قبل الخلافة تشترى له الحلة بالف دينار فيقول ما اجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف
كان تشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما اجوده لولا لينه فقيل له اين لباسك
ومركبك وعطرك فقال ان لي نفسا تواقة ذواقة وانها لم تذق من الدنيا حالة الا تاقت
لما فوقها وانها لما ذاقت الخلافة وهي ارفع الطبقات تاقت الى ما عند الله • وقال
سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الجمعة وعليه قميص مرقوع
الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا امير المؤمنين ان الله اعطاك فلو لبست
فنكس راسه مليا ثم رفع راسه فقال ان افضل القصد عند الجدة وان افضل
العفو عند المقدرة • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك زينة لله ووضع
ثيابا حسنة تواضعا لله كان حقا على الله ان يدخر له عبقري الجنة فان
قلت فقد قال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم
عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس

فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم أن الثوب الجيد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل
أحد في كل حال وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حال ثابت بن قيس إذ قال إني
امرؤ حبب إلي الجمال فعرفه أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فإنه
ليس من ضرورته أن يكون من الكبر كما أن الرضى بالثوب الدون قد يكون من التواضع
وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف يكون
وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وذلك ليس من الكبر فإذا انقسمت الأحوال
فقول عيسى عليه السلام هي خيلاء القلب يعني قد تورث خيلاء القلب وقول نبينا المصطفى
صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعني أن الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر بل يكون هو
مورثا للكبر وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحمود الوسط من اللباس الذي لا يوجب
شهرة لا بالجودة ولا بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في
غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله البسوا
ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون ثيابا أهل الصلاح
وقال عيسى عليه السلام ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري
البسوا ثياب الملوك والينوا قلوبكم بالخشية ومنها أن يتواضع بالاحتمال إن سب
وأوذي وأخذ حقه فذلك هو الأصل وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب
الغضب والحسد وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فبه ينبغي أن يقتدى ومنه ينبغي أن يتعلم وقد قال ابن أبي سلمة قلت لأبي سعيد الخدري
رضي الله عنه ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال يا ابن
أخي كل لله واشرب لله والبس لله وكل شيء من ذلك دخله مباهاة أو زهو أو رياء أو
سمعة فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يعالج في بيته كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويكنس البيت ويحلب الشاة ويخصف
النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا ويشتري الشيء من
السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب به إلى أهله

ويصافح الغني والفقير والصغير والكبير ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من حر أو عبد من
أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحي من أن يجيب الداعي وإن كان أشعث
أغبر ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل لا يرفع غدا لعشا ولا عشا لغدا
هين المؤونة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طلق الوجه بساما من غير ضحك محزونا
من غير عبوس شديدا من غير عنف متواضعا من غير مذلة جوادا من غير سرف رحيما بكل
ذي قربى قريبا من كل ذمي ومسلم رقيق القلب دائم الإطراق لم يتشاقط من شبع وقيل يبشم
ولم يمد يده إلى الطمع وزادت فيه عائشة رضي الله عنها لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث إلى
أحد شكوى وكانت الفاقة أحب إليه من اليسار والغنى وإن كان ليظل جائعا يلتوي
ليلته حتى يصبح فلا يمنعه ذلك من صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض
وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما أرى به من
الجوع وأمسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفدا لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك
ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على
ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مثواهم وأجزل ثوابهم
فأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب
إلي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي
قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك شهرا حتى قبض صلى الله عليه وسلم والذي
نقل من أخلاقه عليه السلام يجمع جملة أخلاق المتواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به صلى الله عليه وسلم
ومن رأى نفسه فوق محله ولم يرض لنفسه بما رضي به فما أشد جهله فلقد كان أعظم
خلق الله منصبا في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ولذلك
قال عمر رضي الله عنه لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام إنا قوم أعزنا الله
بالإسلام فلن نطلب العز في غيره وقال أبو الدرداء اعلم أن لله عبادا يقال لهم
الأبدال خلف من الأنبياء أوتاد الأرض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم
قوما من أمة محمد عليه السلام لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية

ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصح لهم ابتغاء وجه الله
بصبر من غير جزع وتواضع في غير مذلة فهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه فهم
اربعون صديقا ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم لا يموت منهم رجل
حتى يكون الله قد انشأ من يخلفه واعلم يا اخي انهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا
يحسدون احدا ولا يحرصون على الدنيا هم اطيب الناس خيرا والينهم عريكة واسخاهم نفسا
علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا
في غفلة ولكن داومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح
العواصف فقلوبهم تصعد ارتياحا الى الله واستباقا اليه وقدما في استباق الخيرات
اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون قال الراوي قلت يا ابا الدرداء ما سمعت صفة
اشد علي من هذه وكيف ابلغها فقال ما بينك وبين ان تكون في اوسعها الا بغضك
الدنيا فانك ان تبغضها اقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في
الدنيا واذا علم الله من عبد حسن الطلب افرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة
واعلم ان ذلك في قوله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال يحيى بن ابي
كثير فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم ان الكبر من المهلكات ولا يخلو احد عن شيء منه وازالته فرض عين ولا يزول
بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته مقامان احدهما
استئصال اصله وعلاجه علمي وعملي والثاني دفع العارض منه بالاسباب
الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره المقام الاول في استئصال اصله
وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما اما العلمي فان يعرف ربه ونفسه
ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة عرف انه اذل
من كل ذليل واقل من كل قليل وانه لا يليق به الا التواضع والذلة واذا عرف
ربه علم انه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله اما معرفة ربه وعظمته ومجده فالقول

بيان التي بها

فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة واما معرفته بنفسه فهو ايضا يطول ولكنا نذكر منها ما
ينفع في اثارة التواضع والمذلة ويكفيه ان يعرف معنى آية في القرآن فان في القرآن علم الاولين
والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال الله تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه
من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره فقد اشار في
الآية الى اول خلق الانسان والى آخر امره والى وسطه فلينظر الانسان الى ذلك ليفهم
معنى هذه الآية اما اول الانسان فانه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حيز العدم
دهورا بل لم يكن لعدمه اول واي شيء اخس من المحو والعدم وقد كان كذلك في
القدم ثم خلقه الله من اذل الاشياء ثم من اقذرها اذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من
علقة ثم من مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظام لحما فهذا بداية وجوده حيث صار شيئا
مذكورا فما صار شيئا مذكورا الا وهو على اخس الاوصاف والنعوت اذ لم يخلق
في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق
ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله
قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل
هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله تعالى من اي شيء خلقه من نطفة
خلقه فقدره ومعنى قوله هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا
انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه كذلك خلقه اولا ثم امتن عليه فقال
ثم السبيل يسره وهذه اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت وكذلك قال
من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل ومعناه انه احياه
بعد ان كان جمادا ميتا ترابا اولا ونطفة ثانيا واسمعه بعد ما كان اصم وبصره بعد
ما كان فاقد البصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء بما فيها
من العجائب والآيات بعد الفقد لها واشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهداه
بعد الضلالة فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف يسره ثم انظر الى طغيان الانسان
ما اكفره والى جهله كيف اظهره كما قال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو

خصيم مبين ونبهنا بانا خلقناه من نطفة الاية فانظر الى اثر رحمة الله كيف نقله من تلك
الذلة والقلة والقذارة الى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد
الموت وناطقا بعد الخرس وبصيرا بعد العمى وغنيا بعد الفقر وقادرا بعد العجز وقويا
بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهتديا بعد الضلال وكان في ذاته لا شيء واي شيء
اخس من لا شيء واي قلة اقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئا وانما خلقه من تراب
ذليل ونطفة قذرة ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وانما اكمل النعمة عليه
ليعرفه بتلك ربه ويعلم به عظمته وجلاله وانه لا يليق الكبرياء الا به ولذلك امتن عليه
فقال الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين الاية وعرفه خسته اولا فقال الم يك
نطفة من مني يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته عليه فقال فخلق فسوى فجعل منه الزوجين
الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده بالاختراع ابتداء فمن كان
هذا بدؤه وهذه حالته فمن اين له البطر والكبرياء والفخر وهو على الحقيقة اخس الاخساء واضعف
الضعفاء ولو اكمله وفوض امره اليه وادام له الوجود باختياره لجاز ان يطغى وينسى
المبدأ والمنتهى ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الامراض الهائلة والاسقام العظيمة
والافات المختلفة والطبائع المتضادة من البلغم والمرة والريح والدم يهدم البعض
من اجزائه البعض رضي ام سخط شاء ام ابى فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها
ويموت كرها لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا خيرا ولا شرا يريد ان يعلم الشيء فيجهله
وان يذكره فينساه ويريد ان يغفل عن الشيء فلا يغفل ويريد ان يصرف قلبه الى ما
يهمه فيجول في اودية الافكار فلا يملك نفسه ولا قلبه يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه
فيه ويكره الشيء وتكون حياته فيه يستلذ الاطعمة وتضره ويستبشع الادوية وهي
تنفعه لا يأمن ان يسلب في لحظة سمعه وبصره وعلمه وقدرته او يختلس عقله ثم
يختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو مضطر ذليل ان ترك بقي وان
اختطف فني فاي شيء اذل منه لو عرف نفسه واني يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط
احواله فليتأمله واما اخره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ثم اماته فاقبره

معناه انه تسلب روحه وحواسه وادراكه وعلمه وقدرته فيعود جمادا كما كان اول مرة
لا يبقى الا شكل اعضائه وصورته لا حس ولا حركة ثم يوضع في التراب فيصير جيفة
منتنة كما كان نطفة قذرة ثم تتفتت اجزاؤه وتنخر عظامه فيصير رميما رفاتا ياكل
الدود اجزاءه ويصير روثا في اجواف الديدان ويرجع جيفة يهرب منه الحيوان و يستقذره
كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان فاحسن حاله ان يعود كما كان فيصير ترابا يعمر
به البنيان او يعمل منه الكيزان وما احسنه لو ترك ترابا بل يحييه بعد طول البلى
ليقاسي شدائد البلاء فينظر الى قيامة قائمة وسما مشققة وارض مبدلة وجبال مسيرة
ونجوم منكدرة وشمس منكسفة مكورة واحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجحيم
تزفر وجنة ينظرها المجرم فيتحسر ويرى صحفا منشورة فيقال له اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
حسيبا فيقول وما هو فيقال قد كان وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتفتخر باسبابها
ملكان رقيبان عليك يكتبان ما تنطق به وتعمله من صغيرة وكبيرة وقد نسيت
ذلك واحصاه الله عليك فهلم الى الحساب واستعد للجواب او تساق الى دار العذاب
فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل ان تنتشر صحيفته ويشاهد ما فيها من مخازيه
فاذا شاهدها قال يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فهذا
اخر امره وهو معنى قوله ثم اذا شاء انشره فما لمن هذه حالته والتكبر بل ماله وللفرح
فضلا عن التبختر فقد ظهر له اول حاله ووسطه ولو ظهر له اخره ربما اختار والعياذ
بالله ان يكون كلبا او خنزيرا فيصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا
ويلقى عذابا وان كان عند الله مستحق النار فالخنزير اشرف منه وارفع اذ اوله تراب
واخره تراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب لا يهرب منه الخلق ولو راو
العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريحه لماتوا
من نتنه فمن هذا حاله في العاقبة كيف يتكبر ويرى نفسه شيئا حتى يعتقد لها فضلا
واي عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة الا ان يعفو عنه مولاه ارايت
من جنى على ملك جناية فاستحق بها الف سوط فحبس وهو ينتظر ان يخرج ويضرب

ألف سوط لمحض الخلق وما يدري أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذلك في السجن أفترى أن يتكبر على
من معه في السجن وما من عبد يذنب ذنبا إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله ولا يدري
كيف يكون أمره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا وذلا فهذا هو العلاج العلمي القاطع لأصل الكبر
وأما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله تعالى ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين
كما حكيناه من أحوال الصالحين ومن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا
عبد آكل كما يأكل العبد وقيل لسلمان عليه السلام لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال إنما أنا عبد فإذا
أعتقت يوما لبست أشار به إلى العتق في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ولذلك أمر العرب
الذين تكبروا على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين
وفي الصلاة أسرار لأجل تلك الأسرار كانت عماد الدين ومن جملة الأسرار ما فيها من التواضع
بالمثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء وربما سقط من
أحدهم سوطه فلا ينحني لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه حتى قال حكيم بن
حزام بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أسجد إلا قائما فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ثم فقه
وكمل إيمانه بعد ذلك فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك
خيلاؤهم ويزول به كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود
والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع وكذلك من عرف نفسه فلينظر كلما يتقاضاه
الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا وسجية فإن القلوب
لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفي العلاقة بين القلب والجوارح
وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت

المقام الثاني

فيما يعرض من الأسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل
فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق
العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة

السبب الأول النسب

فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين أحدهما أن هذا جهل من حيث
أنه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

دونيته

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان
الذي ينتسب إليه حيا لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي
أفترى أن الدودة التي تخلق من بول الإنسان أشرف من الدودة التي تخلق من بول فرس
هيهات فهما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة

الثاني هو أن يعرف نسبه
الحقيقي فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد
عرفه الله نسبه بقوله تعالى الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله
من سلالة من ماء مهين فمن أصله من تراب مهين يداس بالأقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ
مسنونا كيف يتكبر وأخس الأشياء ما إليه انتسب إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من
الحمأة ويا أقذر من المضغة فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فليحقر
نفسه بذلك ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعة
وإذا لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده فإذا أصله من تراب وفصله من نطفة
فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل يغسل منه
البدن فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثاله بعد
هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم
وأخبره بذلك والداه فلم يزل فيه عزة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في
قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القذر وكشفوا له وجه التلبيس فلم يبق عنده شك في
صدقهم أفترى أن ذلك يبقي شيئا من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر وأذل فهو في
استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره فهذا حال البصير إذا تفكر
في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب إذ كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب
أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه
للتراب والدم فكيف إذا عرف أنه في نفسه من تراب ودم وأشياء قذرة يتنزه
منها هو بنفسه

السبب الثاني التكبر بالجمال ودواؤه أن
ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح

ما يجده عليه من نعيم لجماله فانه وكلت به الاقذار في جميع اجزائه الرجيع في امعائه والبول
في مثانته والمخاط في انفه والبزاق في فيه والوسخ في اذنيه والدم في عروقه والصنان
تحت ابطه يغسل الغائط كل يوم بيده ويتردد الى الخلاء ليخرج من معدته ما لو رآه
بعينه لاستقذره فضلا ان يمسه كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حالة توسطه
واول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من نطفة ودم حيض واخرج من مجرى البول
الى رحم هو مغيض دم الحيض قال انس كان ابو بكر الصديق رضي الله عنهما يخطبنا فيقذر
لنا انفسنا يقول خرج احدكم من مجرى البول مرتين وكذلك قال طاووس لعمر بن عبد العزيز
رضي الله عنهما ما هذه مشية من في بطنه خرء اذ رآه يتبختر قبل خلافته هذا اوله
ووسطه ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت
منه الانتان والاقذار وصار اقذر وانتن من الدواب المهملة التي لا تتعهد انفسها قط
فاذا نظر انه خلق من اقذار واسكن في اقذار وسيموت فيصير جيفة اقذر من جميع
الاقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضرة الدمن وكلون الازهار في البوادي فبينا هو كذلك اذ صار هشيما تذ
روه الرياح كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب الا يتكبر
به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح اليه فينفيه ولا جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه كيف ولا
بقاء له بل هو في كل حالة يتصور ان يزول بمرض او جدري او بسبب فكم من وجوه
جميلة قد سمجت بهذه الاسباب فمعرفة هذه الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال

السبب الثالث التكبر بالقوة والايد ويمنعه من ذلك ان يعلم ما
سلط عليه من العلل والامراض وانه لو توجع له عرق واحد في يده صار اعجز من كل
عاجز واذل من كل ذليل وانه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه ولو دخلت بعوضة
انفه او اذنه ولو شاكته شوكة اعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في
مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يدفع عنه ذبابة فلا ينبغي ان يفتخر بقوته ثم ان قوي
الانسان لا يكون اقوى من حمار او ثور او جمل او فيل فاي افتخار في صفة يسبقك فيها
البهائم **السبب الرابع والخامس** التكبر بالغنى وكثرة المال وفي معناه
كثرة الاتباع

وفي معناه كثرة الاتباع والتكبر بولاية السلاطين والتمكين من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى
خارج عن ذات الانسان لا كالجمال والقوة والعلم وهذا اقبح انواع الكبر فان المتكبر بماله كالمتكبر
بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان
وولايته لا بصفة في نفسه بنى امره على قلب هو اشد غليانا من القدر فان تغير عليه كان
اذل الخلق وكل متكبر بامر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر بالغنى لو تامل
لرأى في اليهود والنصارى من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فاف لشرف يسبقك به
اليهود والنصارى واف لشرف ياخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا معدما
فهذه اسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته فليس اليه دوام وجوده وهو في الآخرة
وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس اليك فليس لك وشيء من هذه الامور
ليس اليك بل الى واهبه ان ابقاه بقي وان استرجعه زال وما انت الا عبد مملوك
لا تقدر على شيء ومن عرف هذا فلا بد وان يزول كبره ومثاله ان يفخر العاقل بقوته وجماله
وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله اذ شهد عليه عدلان عند حاكم منصف
بانه رقيق لفلان وان ابويه كانا مملوكين له فحكم بذلك الحاكم فجاء مالكه فاخذه واخذ
جميع ما في يده وهو مع ذلك يخشى ان يعاقبه وينكل به لتفريطه في امواله وتقصيره في طلب
مالكه ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا في منزل قد احدقت به الحيات والهوام وهو
في كل حال على وجل ويقين لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريق الخلاص البتة افترى
ان من هذا حاله هل يفتخر بقدرته وثروته ام يذل في نفسه ويخضع وهذا حال كل عاقل
بصير فانه يرى نفسه كذلك بانه لا يملك رقبته وماله وهو مع ذلك بين شهوات
وآفات وامراض واسقام هي كالحيات والعقارب يخاف منها الهلاك فمن هذا
حاله لا يتكبر بقدرته وقوته اذ يعلم انه لا قدرة له ولا قوة فهذا علاج طريق التكبر بالاسباب
الخارجة وهو اهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كمالان في النفس جديران
بان يفرح بهما ولكن في التكبر بهما ايضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره **السبب
السادس** التكبر بالعلم وهذه اعظم الآفات واغلب الادواء واعزها

عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله وعند الناس وهو أعظم
من قدر المال والجمال بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب إن للعلم طغياناً
كطغيان المال ولذلك قال عمر رضي الله عنه العالم إذا زل زل بزلته عالَم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم
نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر
إلا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أن حجة الله تعالى على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل
ما لا يحتمل عُشره من العالم وأن من عصى الله على معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حق
نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق
أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون ما لك فيقول كنت آمر
بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله تعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال تعالى
مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً أراد علماء اليهود وقال تعالى
في بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها إلى قوله فمثله كمثل الكلب قال ابن عباس
رضي الله عنه أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي
سواء آتيته الحكمة أو لم أوته فلا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع من
شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل
فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من
قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ
وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً فكم من عالم يشتهي في القيامة سلامة الجهال والعياذ
بالله من ذلك فهذا الخطر يمنع التكبر لأنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف
يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة وقد كان بعضهم يقول
يا ليتني لم تلدني أمي ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة كل ذلك
خوفاً من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من التراب مهما أطالوا الفكر في الذي
هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور
فشرع في بعضها وترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشككه في بعضها هل أداه كما

٥٢

كما يرضي مولاه أم لا فأخبره مخبر أن مولاه قد أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً
ذليلاً ويلقيه على بابه في الشمس والحر زماناً طويلاً حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الجهد
أمر برفع حسابه وفتش عن أعماله ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب مؤلم وقد علم أن سيده قد
فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم فهو لا يدري أنه من أي الفريقين يكون
فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وبطل كبره وظهر خوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل
تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب به فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه
من أوامر الله لجنايات على جوارحه وذنوب على باطنه من الرياء والحسد والعجب والنفاق
وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة

الأمر الثاني

أن العالم يعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً وقد أحب
الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك
قدراً فلا قدر لك عندي فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه وهذا يزيل الكبر عن
قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أن يتصور ذلك وبهذا زال الكبر عن الأنبياء عليهم السلام
إذ علموا أن من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله أن يستصغروا أنفسهم حتى
يعظم عند الله محلهم فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة

فإن قلت

وكيف يتواضع للفاسق والمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف
يجهل فضل العلم والعبادة عند الله وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن
خطر الفاسق والمبتدع أكثر فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر
إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم
ويختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله
من أهل النار وهو لا يدري وكم من مسلم نظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره
وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر رضي الله عنهما وجل
فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا للخاتمة فإذاً أحق للعبد أن لا يتكبر
على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال إنه عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني وإن نظر

العالم فيقول انه علم ما لم اعلم فكيف اكون مثله وان نظر الى جاهل اكبر منه سنا قال انه اطاع الله
قبلي فكيف اكون مثله وان نظر الى صغير قال انى عصيت الله قبله فكيف اكون مثله وان نظر الى
مبتدع او كافر قال ما يدريني لعله يختم له بالاسلام ويختم لي بما هو عليه فليس دوام الهداية الي كما
لم يكن ابتداؤها الي فبملاحظة الخاتمة يقدر ان ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بان يعلم
ان الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر من الدنيا مما لا بقاء له ولعمري ان
هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد منهما ان يكون مصروف
الهم الى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره فان الشفيق بسوء
الظن مولع وشفقة كل انسان على نفسه واذا حبس جماعة وعدوا ان تضرب رقابهم لم يتفرغوا
لتكبر بعضهم على بعض اذ شغل كل واحد منهم هم نفسه عن هم غيره حتى كان كل واحد منهم
هو وحده في مصيبته وخطره فان قلت فكيف ابغض المبتدع والفاسق في الله وقد امرت
ببغضهما ثم مع ذلك اتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا امر مشتبه يلتبس
على اكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله في انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال
بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا رأى فاسقا جلس الى جنبه ازعجه عنه وتنزه
منه بكبر باطن في نفسه وهو ظان انه قد غضب لله كما وقع لعابد بني اسرائيل مع خليعهم
وذلك لان الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر عنه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع
يشبه الغضب لله وهو خير فان الغضبان ايضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر
يغضب واحدهما يثمر الاخر ويوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون
والذي يخلصك من هذا ان يكون الحاضر في قلبك عند مشاهدتك للمبتدع والفاسق
او عند امرهما بالمعروف او نهيهما عن المنكر ثلاثة امور احدها التفاتك الى ما سبق
من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك الثاني ان تكون
ملاحظتك لما انت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث ان
ذلك نعمة من الله عليك ولله المنة سبحانه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك
واذا لم تعجب بنفسك لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك وعاقبته

وانه ربما يختم له بخير ويختم لك بشر حتى يشغلك الخوف عن التكبر فان قلت فكيف اغضب
في هذه الاحوال فاقول تغضب لمولاك اذ امرك ان تغضب له لا لنفسك وانت في
غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من
خفايا ذنوبك اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة واعرفك ذلك بمثال لتعلم انه
ليس من ضرورة الغضب لله ان تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فاقول
اذا كان للملك ولد وغلام ووكل الغلام بالولد ليؤدبه وامره ان يضربه مهما اساء ادبه
واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام مطيعا محبا لمولاه فمهما رأى ولده
اساء الادب غضب عليه وانما يغضب عليه لمولاه لانه امره بذلك فانه يريد التقرب
اليه بامتثال امره ولانه جرى من الولد ما يكرهه مولاه فيضربه ويغضب عليه من غير
تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لان الولد اعز لا
محالة من الغلام فاذا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك
ان تنظر للمبتدع والفاسق وتظن انه ربما يكون قدرهما عند الله في الاخرة اعظم من
قدرك لما سبق لهما من الحسنى في الازل ولما سبق لك من سوء القضاء في الازل
ومع ذلك تغضب بحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز ان يكون
ان يكون اقرب عنده منك في الاخرة فهكذا يكون غضب العلماء الاكياس فينضم
اليه الخوف والتواضع واما المغرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لغيره مع
جهله بالعاقبة وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله واعتقد البدعة
مع الغضب عليه والمجانبة له بحكم الامر **السبب السابع** التكبر بالورع والعبادة
وفي ذلك ايضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله ان يلزم قلبه التواضع لسائر العباد
وذلك بان يعلم ان من يتقدمه بالعلم لا ينبغي ان يتكبر عليه بحال لما قد عرفه من
فضيلة العلم وقد قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال النبي صلى الله عليه وسلم
فضل العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل من الصحابي فان قال العابد ذلك عالم عامل
بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له اما علمت ان الحسنات يذهبن السيئات وكما ان العلم يمكن

أن يكون محنة على العالم فكذلك يمكن أيضاً أن يكون محنة له وكفارة لذنوبه وإذا كان هذا أمراً غائباً
عنه لم يجز أن يحتقر العابد بل يجب أن يتواضع له فإن قلت فإن صح هذا فينبغي أن يحق العالم أن يرى
نفسه فوق العابد لحديث فضل العالم على العابد فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره
وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق
بذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به وإذا كان هذا ممكناً كان على
نفسه خائفاً فإذاً كل واحد من العالم والعابد خائف على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره
فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال
فهذا حال العابد مع العالم فأما مع غير العالم فهم ينقسمون في حقه إلى مستورين ومكشوفين
فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله تعالى
وأما المكشوف حاله فإنه لم يظهر لك من ذنوبه إلا ما يزيد عليه ذنوبك فلا ينبغي أن تتكبر
عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنوباً لأن عدد ذنوبك وذنوب غيرك لا تقدر على إحصائها
حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا ومع
ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والغل والرياء واعتقاد
الباطل والوسوسة في صفات الله وتخييل الخطأ فيها كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك
في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به ممقوتاً عند الله وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من
طاعات القلوب من حب الله والإخلاص والخوف والتعظيم ما انمحت عنه خطاياه وقد غطى ذلك عنه
سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوقك بدرجات وهذا ممكن والإمكان البعيد
فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك ولا تشتغل فيما هو ممكن لغيرك
بل فيما هو مخوف في حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك
فإذا تفكرت في هذا الخطر العظيم كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق
غيرك وقد قال وهب بن منبه رضي الله عنه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال وعد
تسعة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى
الناس كلهم خيراً منه وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه

وأدنى فهو متواضع للفرقتين جميعاً بقلبه إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به
وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقول لعل
بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه ويتوب عليه
ويختم له بأحسن الأعمال وبري أنا ظاهر وذلك شر لي فلا آمن فيما أظهرته من الطاعة أن يكون
الآفات دخلتها فأحبطتها وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء الأزلي
بشقوته فما له سبيل أن يتكبر بحال من الأحوال نعم إذا غلبه الخوف وأكمل العجز عن نفسه وذلك
هو الفضيلة كما روي أن عابداً أوى إلى جبل فرأى في النوم ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو
لك فأتاه فسأله عن عمله فقال أصوم النهار وأكتسب فأتصدق ببعضه وأطعم عيالي
بعضه فرجع وهو يقول إن هذا لحسن ولكن ليس كالتفرغ لطاعة الله فأتي في النوم ثانياً
وقيل له ائت الإسكاف فقل له ما هذا الصفار بوجهك فأتاه فسأله فقال له ما رأيت
أحداً إلا وقع لي أنه ينجو وأني أهلك فقال العابد بكلمة والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة
قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أي يؤتون الطاعات وقلوبهم خائفة
من عدم قبولها وقال تعالى إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين وقال تعالى إن الذين هم من خشية
ربهم مشفقون ووصف الله الملائكة مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم للعبادة
بالإشفاق فقال يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته ربهم مشفقون فمتى زال
الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء الأزلي وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من
مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع
دليل الخوف والخوف مسعد فإذاً ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق واستصغارهم
أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزول داء الكبر عن القلب لا غير إلا أن
القلب بعد هذه المعرفة قد يضمر التواضع ويدعي البراءة من الكبر وهو كاذب فإذا
وقعت الواقعة عادت النفس إلى طبعها ونسيت وعدها فعن هذا لا ينبغي أن
يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن يكمل بالعمل ويجرب بأفعال المتواضعين
في مواضع هيجان الكبر من النفس وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على

استخراج ما في الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة **الامتحان الاول** ان يناظر في
مسئلة مع قرينه فان ظهر شي من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر
له على تنبيهه فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه وليشتغل بعلاجه اما من حيث العلم
فبان يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لا يليق الا بالله واما العمل فبان يكلف
نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق فيطلق اللسان بالحمد والثنا ويقر على نفسه بالعجز ويشكر
على الاستفادة ويقول ما احسن ما فطنتني وقد كنت غافلا فجزاك الله خيرا على ما نبهتني فالحكمة
ضالة المومن فاذا وجدها شكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات كثيرة صار ذلك طبعا
له وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثنا على اقرانه بما فيهم ففيه
كبر فان كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل في الملا فليس فيه كبر وانما فيه ريا فليعالج
الريا بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس وتذكير قلبه بان منفعته في كماله في ذاته وعند
الله لا عند الخلق الى غير ذلك من ادوية الريا وان ثقل ذلك عليه في الخلوة والملا جميعا ففيه
الكبر والريا ولا ينفعه الخلاص من احدهما ما لم يتخلص من الاخر فليعالج كلا الداءين فانهما مهلكان
الامتحان الثاني ان يجتمع مع الاقران في المحافل فيقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس
تحتهم فان ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فيزول وههنا
للشيطان مكيدة وهي ان يجعل بينه وبين اقرانه بعض الارذال او ان يجلس عند صف النعال
فيظن به ان ذلك تواضع وهو عين الكبر فان ذلك يخف على نفوس المتكبرين اذ يوهمون انهم
تركوا مكانهم تفضلا فيكونون قد تكبروا وتكبروا باظهار التواضع ايضا بل ينبغي ان يجلس
مع اقرانه لكن بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف النعال فذلك الذي يخرج خبث الكبر من الباطن
الامتحان الثالث ان يجيب دعوة الفقير ويسعى في حاجة الرفقة والاقارب
فان ثقل عليه ذلك فهو كبر فان هذه الافعال من مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل
فنفور النفس عنها لخبث في الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما
ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر **الامتحان الرابع** ان يحمل حاجة نفسه واهله
من السوق الى البيت فان ابت نفسه ذلك فهو كبر او ريا فان كان يثقل ذلك عليه

مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل عليه الا عند مشاهدة الناس فهو ريا وكل ذلك من امراض
القلب وعلله المهلكة له ان لم يتدارك وقد اهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الاجساد مع
ان الاجسام قد كتب عليها الموت والقلوب لا تدرك السعادة الا بالسلامة كما قال الله تعالى الا من اتى
الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله بن سلام انه حمل حزمة حطب فقيل له يا ابا يوسف قد كان لك من
ما يكفيك قال اجل ولكن اردت ان اجرب نفسي هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما اعطته من العزم على
ترك الانفة حتى جربها اصادقة ام كاذبة وفي الخبر من حمل فاكهة او شيا لبيته فقد برئ من الكبر
الامتحان الخامس ان يلبس خشن الثياب فان نفور النفس عن ذلك في الملا ريا وفي الخلوة
كبر وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل وقال النبي صلى الله عليه وسلم من اعتقل البعير
ولبس الصوف برئ من الكبر وقال صلى الله عليه وسلم انما انا عبد اكل بالارض والبس الصوف واعتقل
البعير والعق اصابعي واجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني وقيل لابي مو
(في الهامش: سى الاشعري رضي الله عنه)
ان قوما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباة فطاف بها الناس وهذه مواضع يجتمع
فيها الريا والكبر فما يختص بالملا فهو ريا وما يختص بالخلوة فهو كبر فليعرف فان من لا يعرف
الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه **بيان غاية الرياضة في خلق التواضع**
اعلم ان هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان وواسطة فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا
وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى خسة ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود ان يتواضع
في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفي قصد الامور ذميم واحب الامور الى الله اوساطها
فمن تقدم على امثاله فهو متكبر ومن تاخر عنهم فهو متواضع اي انه وضع شيئا من قدره الذي
يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه واجلسه فيه ثم تقدم وسوى
له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا ايضا غير محمود بل المحمود عند الله
العدل وهو ان يعطي كل ذي حق حقه فينبغي ان يتواضع بمثل هذا لامثاله فاما تواضعه للسوقي
فبالكلام والبشر في الكلام والرفق في السوال واجابة دعوته والسعي في حاجته وان لا يرى نفسه
خيرا منه بل يكون على نفسه اخوف منه على غيره فلا يحقره وهو لا يعرف خاتمة امره فاذا ابتليه
ان يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يحبب عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر

عنه فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف
لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير تثاقل ومن غير روية فإن خف ذلك وصار بحيث
يخف عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس
للمؤمن أن يذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق
وفي سائر الأخلاق والميل عن الوسط إلى النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة
بالتكبر كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل فنهاية التبذير
في المال ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش من الآخر وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص
والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما
يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق
الكبر والتواضع.

الشطر الثاني من الكتاب في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفته وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما وبيان علاج العجب على
الجملة وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه. بيان ذم العجب. اعلم أن العجب مذموم في كتاب
الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا
ذكر ذلك في معرض الإنكار. وقال تعالى وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فرد
على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا
وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو
مصيب فيه. وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه
وقال لأبي ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل
ذي رأي برأيه فعليك بنفسك. وقال ابن مسعود الهلاك في اثنين القنوط والعجب وإنما جمع
بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه
قد ظفر بمراده وسعد فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في
اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فمن هاهنا جمع بينهما. قال الله تعالى
فلا تزكوا أنفسكم الآية. وقال ابن جريج إذا عملت خيرا لا تقل عملت. وقال زيد بن أسلم لا تبروها

أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله يوم أحد بنفسه فأكب عليه
حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه إذ فداه بنفسه حتى جرح فتفرس عمر رضي الله عنه فيه ذلك فقال ما
زال يعرف في طلحة بأو والبأو الكبر منذ أصيبت إصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم ينقل عنه
أنه أظهره ولا احتقر مسلما. ولما كان وقت الشورى قال ابن عباس رضي الله عنه أين أنت عن طلحة قال
ذاك رجل فيه نخوة فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم
وقال مطرف رضي الله عنه لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم
لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب. وكان بشر بن منصور رضي الله عنه من
الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل رؤيته لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوما ورجل ينظر
إليه ففطن له بشر فلما فرغ من صلاته قال له لا يعجبك ما رأيت مني فإن إبليس عبد الله مع الملائكة عليهم السلام
مدة طويلة ثم صار إلى ما صار. وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت إذا
ظن أنه محسن. وقد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فالمن نتيجة استعظام الصدقة
واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم.

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من
العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب
يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغني
عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه
وتلافيه بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن
على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها
ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة
قلما تنفع وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه
وبربه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا
بأعماله التي هي نعمة من نعم الله عليه ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويزكيها وإن أعجب
برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة والمشاورة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه

ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره
ولا يفرح بخاطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال فإن كان أمره في أمر
دنيوي حقق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه
واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وتبع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله للحق
فهذا وأمثاله مما كان العجب فلذلك كان من المهلكات

بيان حقيقة العجب والإدلال

وحدهما اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره
حالتان أحدهما أن يكون خائفا من زواله مشفقا على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب
والأخرى أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته
إلى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هي العجب وهو أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا
به مطمئنا إليه ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة ورفعة وخير لا من حيث إنه عطية من الله تعالى
ونعمة منه فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله
بأنه منه فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فإذا العجب
هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على
نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا
يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه دالة على الله تعالى
وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن به عليه فيكون معجبا فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات
جانيا واستبعد تخلفه عن قضاء حقه كان مدلا عليه وقال قتادة في قوله تعالى ولا تمنن تستكثر
أي لا تدل بعملك وفي الخبر إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك
خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك والإدلال وراء العجب فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب
لا يدل إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والإدلال لا يتم إلا
مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب من ذلك كان مدلا بعمله
فإنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو
من مقدمات الكبر وأسبابه

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها

بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل
تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق فإن العجب بها أغلب من العجب
بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول الورع والتقوى
والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث إنه منه
وبسببه وبقدرته وقوته فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة
غيره فهذا جهل لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس إليه وإن
كان يعجب به من حيث هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته وقوته فينبغي أن يتأمل في قدرته
وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها تم عمله أنها من أين كانت له فإن كان جميع ذلك
نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وفضله
إذ أفاض عليه ما لا يستحقه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فإنه مهما برز الملك لغلمانه
فخلع على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لخدمة فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه
وإيثاره له من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين هو وما سببه ولم ينبغي أن يعجب هو بنفسه
نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك عدل حكيم لا يتقدم ولا يؤخر إلا لسبب فلولا أنه علم مني صفة محمودة
باطنة لما اقتضى إيثاره بالخلعة لي فيقال وتلك الصفة هي أيضا من خلع الملك وعطيته
التي خصصك بها دون غيرك من غير وسيلة أو هي عطية غيره فإن كانت من عطية الملك أيضا
لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب
به فتقول إنما أعطاني غلاما لأني صاحب فرس وأما غيري فلا فرس له فيقال وهو الذي
أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فإ ذا
كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك وأما إن كانت تلك الصفة من غيره
فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الله ملك الملوك
المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة سبحانه وتعالى فإنك إن أعجبت
بعبادتك وقلت وفقني للعبادة لحبي له فيقال لك ومن خلق الحب في قلبك فستقول
هو فيقال لك فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتداك بهما من غير استحقاق من

جهلك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده اذ انعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود
اعمالك واسباب اعمالك فاذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله
وعجب الغني بغناه لان ذلك كله من فضل الله وانما هو محل لفيض فضل الله وجوده والمحل ايضا من
فضله وجوده فان قلت لا يمكنني ان اجهل اعمالي واني انا عملتها فاني انتظر عليها ثوابا ولولا انها عملي لما
انتظرت الثواب عليها فان كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن اين لي الثواب وان كانت
الاعمال مني وبقدرتي فكيف لا اعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين احدهما هو صريح الحق والاخر فيه
مسامحة اما صريح الحق فهو انك وقدرتك وحركتك وارادتك جميع ذلك من خلق الله واختراعه
فما عملت اذ عملت وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق
الذي انكشف لارباب القلوب بمشاهدة هي اوضح من ابصار العين بل الله خلقك وخلق اعضاءك وخلق
فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الارادة ولو اردت ان تنفي عن نفسك
شيئا من هذا لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في اعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك
معه في الاختراع الا انه خلقها على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب ارادة
ولم يخلق ارادة ما لم يخلق علما بالمراد ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم فتدريجه
في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل اليك انك اوجدت اعمالك وقد غلطت وايضاح ذلك
وايضاح كيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سياتي في كتاب الشكر فانه اليق به ونحن
الان نزيل اشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما وهو ان تحسب ان العمل حصل
بقدرتك فمن اين قدرتك فلا يتصور العمل الا بوجودك وبوجود علمك وارادتك وقدرتك
وسائر اسباب عملك فكل ذلك من الله لا منك وان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا
المفتاح بيد الله تعالى ومالم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل والعبادات خزائن بها يتوصل
للسعادات ومفتاحها الارادة والعلم والمفتاح بيد الله لا محالة ارايت لو ابصرت خزائن الدنيا
مجموعة في قلعة ومفتاحها بيد الخازن فلو قعدت على بابها الف سنة لم تر ما فيها ولو اعطاك المفتاح
وسلطك عليها لاخذتها عن قرب بان تبسط يدك اليه فتاخذه فقط فان اعطاك المفاتيح ثم
سلطك عليها ومكنك منها فمددت اليد واخذتها اكان اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح او

بما اليك من مد اليد واخذها ولا تشك في انك ترى ذلك نعمة من الخازن لان المؤونة في تحريك
اليد باخذ المال قريب وانما الشان كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت
الارادة الجازمة وحركة الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف حتى لم يبق
صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف
العوائق وتهيئة الاسباب كلها من الله فليس شيء منها اليك ومن العجائب ان تعجب
بنفسك ولا تعجب بمن اليه الامر كله ولا تعجب بفضله وجوده في ايثاره اياك على الفساق اذ سلط دواعي عجي
الفساد عليهم وصرفها عنك وسلط اخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من اسباب
الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسهلها لك حتى تيسر
لك الخير ويسر لهم الشر فعل ذلك كله بك وبالفاسق من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من
الفاسق بل اثرك وقدمك واصطفاك بفضله وابعد العاصي واشقاه بعدله فما اعجب اعجابك
بنفسك اذ عرفت ذلك فاذاً لا تنصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله عليك داعية لا
تجد سبيلا الى مخالفتها فكانه هو الذي اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا تحقيقا فله المنة لا لك
وسياتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الاسباب والمسببات ما يتبين به انه لا فاعل
الا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يعجب اذا رزقه الله عقلا وافقره ممن افاض عليه المال من غير علم
فيقول كيف يمنعني قوت يومي وانا العاقل الفاضل وافاض عليه نعيم الدنيا وهو الجاهل الغافل
حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري المغرور انه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم
اشبه في ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا
جمعتهما لي وهلا رزقتني احدهما والى مثل هذا اشار علي رضي الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء
فقراء فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب ان العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني
احسن حالا من نفسه ولو قيل له تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع فاذاً
هذا يدل على ان نعمة الله عليه اكثر فلم يتعجب منه وكذلك المراة الحسنة الفقيرة ترى الحلي والجواهر على
القبيحة فتتعجب وتقول كيف يحرم مثلي من هذا ويخص به مثل هذه القبيحة ولا تدري
المغرورة ان الجمال محسوب عليها من رزقها وانها لو خيرت بين الجمال والفقر وبين القبح مع الغنى

لا يؤتون الجمال مع الفقر فإذا نعمة الله عليها أكثر وهو الحكيم العاقل الفقير فليقل يا رب لم حرمتني
الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرسًا فيقول أيها الملك لم لا تعطيني غلامًا وأنا صاحب
فرس فيقول له الملك كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أني ما أعطيتك فهبا أصار نعمتي
عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك
الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعقله وأوصافه كل ذلك من عند الله نعمة ابتداه العبد
بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال
النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعمله وعلمه ويجب أن يعلم أن كل ذلك من الله ولذلك لما
قال داود عليه السلام ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود
صائم فأوحى الله إليه يا داود ومن أين لهم ذلك إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت
وسأكلك إلى نفسك قال ابن عباس رضي الله عنه إنما أصاب داود عليه السلام ما أصاب إلا بعجبه بعمله
إذ أضاف ذلك إلى آل داود مدلًا به حتى وكل إلى نفسه فأورثه ذلك الحزن والندم فقال داود عليه السلام
يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام فقال الله تعالى إني ابتليتهم
فصبروا فقال يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى أما إني لم أخبرهم
بأي شيء ابتليتهم ولا في أي يوم ولا في أي شهر وأنا مخبرك في شهرك أبتليك غدًا بامرأة فاحذر
نفسك فوقع فيما وقع وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم
ونسوا فضل الله عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة وكلوا إلى أنفسهم فقال الله تعالى ويوم حنين
إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا الآية وقال أيوب عليه السلام إلهي إنك ابتليتني بهذا
البلاء وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت
أنى لك ذلك من أين لك ذلك قال فأخذ رمادًا ووضعه على رأسه فقال منك يا رب فرجع منه
إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد
أبدًا ولكن الله يزكي من يشاء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم وهم خير الناس ما
منكم من أحد ينجيه عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ولقد
كان أصحابه بعده يتمنى بعضهم أن يكون ترابًا وبعضهم يتمنى أن يكون تبنة مع صفاء أعمالهم و
وطهارة قلوبهم

وطهارة قلوبهم فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه فإذًا هذا
هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه
النعمة عن الإعجاب بها بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان بغير ذنب أذنبوه
من قبل فيخاف من ذلك فيقول إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة فلا يبالي
أن يعود ويسترجع ما وهب فكم من مؤمن ارتد ومطيع فسق وختم له بشر وهذا لا يبقى معه عجب بحال

بيان أقسام ما به العجب

وتفصيل علاجه اعلم أن العجب بالأسباب
التي بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله فما به العجب
ثمانية الأول أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله و
حسن صورته فيلتفت إلى ذلك وينسى أنه نعمة من الله وهو معرض للزوال وعلاجه ما ذكرناه في
الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أول أمره وفي آخره وفي الوجوه الحسنة والأبدان
الناعمة كيف تمزقت في التراب وتنتنت في القبور الثاني القوة والبطش كما حكي عن
قوم عاد من أشد منا قوة وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلًا ليطبقه على عسكر
موسى عليه السلام فثقبه الله حتى صار في عنقه وقد يتكل المؤمن أيضًا على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام
أنه قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلامًا ولم يقل إن شاء الله فحرم ما
أراد من الولد وكذلك قال داود عليه السلام إن ابتليتني صبرت إعجابًا بقوته ويورث العجب
بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة للضرب والقتل من قصده بسوء وعلاجه
ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبه الله إياها
بأدنى آفة يسلطها عليه الثالث العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور
من مصالح الدنيا والدين وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين
المخالفين له ولرأيه ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضًا عنهم استغناء برأيه وعلاجه أن يشكر الله
على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن حتى يضحك منه
فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا
وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما علمه فكيف بما لم يعرفه الناس وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى

كيف يعجبون بعلمهم ويجهلون الناس معهم ويحذرون أن يكونوا مثلهم ولا يدري بم يختم له الفاضل العاقل لا يعجب قط
بغزارة عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فإن من
يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه ؛ الرابع العجب
بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له
ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في فعلهم وخلقهم وظن
أنه يلحق بهم فقد جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف وكسر النفس وذمها
واستعظام الخلق ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشرف
بما شرفوا به وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله فكانوا عند الله
شرا من الكلاب ؛ ولذلك قال الله تعالى يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى أي لا تفاوت في
أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ ولما قيل
لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس لم يقل من ينتمي إلى نسبي بل قال أكثرهم للموت
ذكرا وأشدهم له استعدادا وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال رضي الله عنه يوم
فتح مكة على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الأسود
يؤذن فقال الله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم قد أذهب الله عنكم
عبية الجاهلية أي كبرها كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ؛ وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش
لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد
فأعرض عنكم فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب ؛ ولما نزلت وأنذر عشيرتك
الأقربين ناداهم صلى الله عليه وسلم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد
المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئا فمن عرف
هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع فإن اقتدى
بهم في التقوى والتواضع وإلا كان طاعنا في نسبه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم
بهم في التقوى والتواضع والخوف والإشفاق فإن قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله

لفاطمة وصفية إني لا أغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكما رحما سأبلها ببلالها ؛ وقد قال عليه السلام
أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب فذلك يدل على أنه يخص قرابته بشفاعته
فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر لشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسب أيضا جدير أن يرجوها
ولكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه فإنه إن يغضب فلا يأذن لأحد في شفاعته فإن الذنوب منقسمة
إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة فيه وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب
عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد فيه غضب
الملك فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله ولا يشفعون إلا لمن ارتضى
وبقوله من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وبقوله لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن
ورضي له قولا وبقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين فإذا انقسمت الشفاعة إلى ما يشفع
فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف لا محالة ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا
بالطاعة ولما نهى فاطمة عن المعصية ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا
ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اعتمادا
على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق
من أب أو أخ وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها
فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن
في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء
من الأنبياء والصالحين للأقارب والأجانب فإنه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر
وكيف يزول وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم وقد كانوا يتمنون
أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم ومع ما سمعوه
من وعد الصادق رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة وبشارته للمسلمين بالشفاعة
عامة ومع هذا لم يتكلوا ولم يفارق الخشوع والخوف قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على
الشفاعة من ليس له صحبة مثل صحبتهم وسابقة مثل سابقتهم ؛ الخامس العجب بنسب السلاطين
الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما

وما جرى منهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله فإنهم ممقوتون عند الله ولو نظر إلى صورهم في
النار ونتنهم لاستنكف عنهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذارا
لهم ولو انكشف له ذلهم يوم القيامة إذ تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذة يجرونهم بنواصيهم لتبرأ إلى
الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من النسبة إليهم فحق أولاد الظلمة إن عصمهم
الله عن ظلمهم أن يشكروا الله على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب
بنسبهم فجهل محض. السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة
والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا وكما قال المؤمنون يوم حنين لا
نغلب اليوم عن قلة وعلاج هذا أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عجزة لا يملكون
لأنفسهم ضرا ولا نفعا وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ثم كيف يعجب بهم
وهم سيتفرقون عنه إذا مات ويدفن في قبره ذليلا وحده لا يرافقه والد ولا ولد
ولا قريب ولا حميم يسلمونه للبلى ولا يغنون عنه شيئا فهو أحوج أوقاته إليهم. كذلك
يهربون منه يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ
منهم يومئذ شأن يغنيه فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعتمد على
جانبه وكيف تعجب به ولا ينفعك في قبرك ولا في القيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل
الله وعملك وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك. السابع
العجب بالمال كما أخبر الله عن صاحب الجنتين إذ قال لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا
ورأى النبي صلى الله عليه وسلم غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض منه وجمع ثيابه فقال عليه السلام
أخشيت أن يعدو إليك فقره وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم
غوائله وفي فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة يوم القيامة وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل
له وأن في اليهود والنصارى أكثر منا الأمة وإلى قوله صلى الله عليه وسلم بينما رجل يتبختر في
حلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة
إشارة إلى عقوبة إعجابه بنفسه وماله. وقال أبو ذر رضي الله عنه كنت مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت فإذا رجل عليه ثياب جياد
ثم قال ارفع

ثم قال ارفع رأسك فرفعت فإذا رجل عليه خلقان فقال يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض
من مثل هذا. وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة
الأغنياء وشرف الفقراء عند الله فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يخلو المؤمن
عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال وأخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك
فمصيره إلى الخزي والبوار. الثامن العجب بالرأي الخطأ قال الله تعالى أفمن زين له سوء
عمله فرآه حسنا وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا وكل معجب
برأيه كل حزب بما لديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم
والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشبهة مع ظن كونه حقا وعلاج
هذا العجب أشد من غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطائه ولو عرفه لتركه ولا يعالج
الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا لأن العارف
يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغي
للعارف ويتهمه فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه
وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده وإنما علاجه على الجملة أن يكون
متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من الكتاب والسنة أو دليل عقلي
صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن
الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثابت وجد في الطلب وممارسة للكتاب والسنة
ومجالسة أهل العلم ومدارسة العلم طول العمر ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في
بعض الأمور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا
يصغي إليها ولا يسمعها لكن يعتقد أن الله واحد لا شريك له وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع
البصير وأن رسوله صادق فيما أخبر به عنه ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب
والسنة من غير بحث وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب
المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال فإن خاض في المذاهب

والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر هذا حق من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء
غير العلم فأما الذي يتجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه والوصول إلى
اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وذلك عزيز
الوجود جداً فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال بمنه وجوده
تم كتاب ذم الكبر والعجب ويتلوه كتاب ذم الغرور من المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذم الغرور

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ومخرج أوليائه من
الظلمات إلى النور ومورد أعدائه ورطات الغرور والصلاة على سيدنا محمد مخرج الخلائق
من الديجور وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور صلاة تتوالى
على ممر الدهور وتقلب الساعات والشهور أما بعد فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة
ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ولا وسيلة
إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما
سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح
المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا
غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء والمغترون
قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها
فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور فالأكياس
هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى والمغترون هم الذين
أراد أن يضلهم فجعل صدورهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء والمغرور هو الذي لم تنفتح
بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً واتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً ومن كان في
هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً فإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات
ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه
ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد

وأخذ منه حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف
المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادي الأمور الجميلة ظواهرها
القبيحة سرائرها ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فإن ذلك وإن كان أكثر
من أن يحصى لكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم
أربعة أصناف الصنف الأول من العلماء الثاني من العباد الثالث من المتصوفة
الرابع من أرباب الأموال والمغترون من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة
فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين
ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه ومنهم
من يترك الأهم ويشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ومنهم من
يترك اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج
الحروف إلى غير ذلك من مداخل الغرور التي لا تنكشف إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة
ولنبدأ أولاً بغرور العلماء لكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده

بيان ذم الغرور

وأمثلته وحقيقته اعلم أن قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور
وقوله ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني كاف في ذم الغرور
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم
ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين وقال صلى الله عليه وسلم
الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى
على الله وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لأن الغرور عبارة
عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به والغرور هو
جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به
وهو الذي يغره فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة
ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً فالغرور هو
سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن

اعتقد انه على خير اما في العاجل واما في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وان اختلفت اصناف
غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم اظهر واشد من بعض واظهرها واشدها غرور
الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها امثلة لحقيقة الغرور. المثال الاول
غرور الكفار فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور اما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم
الذين قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فاذا الدنيا خير فلا بد من ايثارها
وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك وهذه
اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس اذ قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين والى هؤلاء
الاشارة بقوله تعالى اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون
وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان اما التصديق بمجرد الايمان فهو ان يصدق
الله تعالى في قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقوله وما عند الله خير وابقى وقوله وما الحياة
الدنيا الا متاع الغرور وقوله فلا تغرنكم الحياة الدنيا وقد اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك
طوائف من الكفار فصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه ببرهان ومنهم من قال نشدتك الله ابعثك
الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق فهذا ايمان العامة وهو يخرج من الغرور وينزل هذا منزلة
تصديق الصبي والده في ان حضوره المكتب خير من حضور اللعب مع انه لا يدري وجه كونه خيرا
واما المعرفة بالبرهان فهو ان يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان
فان كل مغرور فلغروره سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في
النفس ويورث السكون اليه وان كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بالفاظ العلماء فالقياس
الذي نظمه الشيطان اصلان احدهما ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله
ان النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس فليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة في
المقدار والمقصود فهو خير وان كان اقل منه فالنسيئة خير فان هذا المغرور الكافر يبذل
في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا اتركه واذا حذره
الطبيب الفاكهة ولذائذ الاطعمة تركها في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل فقد ترك
النقد ورضي بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار والقفار ويتعبون في الاسفار نقدا لاجل

الربح والراحة نسيئة فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من
حيث اضافة مدتها الى مدة الآخرة فان اقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من
الآخرة فكانه ترك واحدا ليأخذ الف الف بل ليأخذ ما لا نهاية له وان نظر من حيث النوع رأى
لذات الدنيا مكدرة مشوبة بانواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا
قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة وهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور اطلق واريد به خاص
فغفل المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة انما اراد به خير من نسيئة هو
مثلها وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو ان اليقين خير من
الشك والآخرة شك وهذا القياس اكثر فسادا من الاول لان كلا اصليه باطل اذ اليقين
خير من الشك اذا كان مثله والا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك والمتفقه في اجتهاده
على يقين وفي ادراكه رتبة العلم على شك والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي
نيل الصيد على شك وكذلك الحزم دأب العقلاء باتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ولكن
التاجر يقول ان لم اتجر بقيت جائعا وعظم ضرري وان اتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا
وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه على يقين وهو من الصحة على شك ولكن يقول ضرر
مرارة الدواء قريب بالاضافة الى ما اخافه من المرض والموت فكذلك من شك في الآخرة فواجب
عليه بحكم الحزم ان يقول ايام الصبر قلائل وهو منتهى العمر قريب بالاضافة الى ما يقال من امر
الآخرة فان كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتني الا التنعم ايام حياتي وقد كنت في
العدم من الازل الى الآن لا اتنعم فاحسب اني بقيت في العدم وان كان ما قيل صدقا فابقى
في النار ابد الآباد وهذا لا يطاق ولهذا قال علي رضي الله عنه لبعض الملحدين المنكرين للبعث
ان كان ما تقوله حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت
وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له بالدليل العقلي انه وان
لم يكن متيقنا فهو مغرور واما الاصل الثاني من كلامه وهو قوله ان الآخرة شك فهو
ايضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان احدهما الايمان والتصديق تقليدا
للانبياء والعلماء وذلك ايضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام واكثر الخواص ومثالهم مثال

مريض لا يعرف دوا مرضه وقد اتفق الاطبا عن اخرهم على ان دواه النبت الفلاني فانه تطمين
نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به
ولو بقي سوادي او معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقراين الاحوال انهم اكثر منه
عددا واغزر منه فضلا واعلم بالطب منه بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد
صدقه بقوله ولا يفتر في عمله بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الاطبا كان معتوها مغرورا فكذلك
من نظر الى المقرين بالاخرة والمخبرين عنها والقايلين بان التقوى هو الدوا النافع في الوصول
الى سعادتها وجدهم خير خلق الله واعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الانبيا
والاوليا والحكما والعلما واتبعهم على ذلك الخلق على اصنافهم وشذ منهم احاد من البطالين
غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم
الاعتراف بانهم من اهل النار فجحدوا الاخرة وكذبوا الانبيا فكما ان قول الصبي او المعتوه
وقول السوادي لا يزيل طمانينة القلوب الى ما اتفق عليه الاطبا فكذلك قول هذا الغبي
الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة اقوال الانبيا والعلما وهذا القدر من الايمان كاف
لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به واما المورث الثاني
لمعرفة الاخرة فهو الوحي والالهام فالوحي للانبيا والالهام للاوليا ولا تظنن ان معرفة
النبي لامر الاخرة وللدين تقليد لجبريل عليه السلم بالسماع منه كما ان معرفتك تقليد للنبي عليه السلم
حتى تكون معرفتك كمعرفته وانما تختلف المقلد فقط هيهات فان التقليد ليس بمعرفة
بل هو اعتقاد صحيح والانبيا عارفون ومعنى معرفتهم انه كشف لهم عن حقيقة الاشيا على
ما هي عليه فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد انت المحسوسات بالابصار الظاهرة
فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد وذلك بان يكشف لهم عن حقيقة الروح وانه
من امر الله وليس المراد بكونه من امر الله الامر الذي يقابل النهي لان ذلك الامر كلام والروح
ليس بكلام وليس المراد بالامر الشان حتى يكون المراد به انه من خلق الله فقط لان ذلك
عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم الخلق ولله الخلق والامر فالاجسام
ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق اذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود

منزه عن الكمية والمقدار فانه من عالم الامر وشرح ذلك من الروح هلا رخصة في ذكره لاستضرار
اكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من افشايه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه
ومن عرف نفسه فقد عرف ربه واذا عرف نفسه وربه عرف انه امر رباني بطبعه وفطرته
وانه في العالم الجسماني غريب وان هبوطه اليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بامر عارض
غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على ادم عليه السلم وعبر عنه بالمعصية وهي
التي حطته عن الجنة التي هي اليق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب وانه امر رباني وحنينه
الى جوار الرب له طبع ذاتي الا ان يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته
وذلك العارض الغريب ورد على ادم عليه السلم فنسي عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل
ذلك فقد ظلم نفسه اذ قيل له ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون
اي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كمامها
اذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه اشارة الى اسرار يهتز لاستنشاق روايحها
العارفون ويشمئز عن سماع الفاظها القاصرون فانها تضرهم كما تضر رياح الورد
بالجعل وتبهر اعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس ابصار الخفافيش وانفتاح هذا
الباب من سر القلب الى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه عارفا ووليا وهي
مبادي مقامات الانبيا عليهم السلم واخر مقامات الاوليا ولنرجع الى الغرض المقصود ان
غرور الشيطان بان الاخرة شك يدفع اما بيقين تقليدي واما ببصيرة ومشاهدة
من جهة الباطن والمومنون بالسنتهم وعقايدهم اذا ضيعوا اوامر الله وهجروا الاعمال
الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لانهم اثروا الحياة
الدنيا على الاخرة نعم امرهم اخف لان اصل الايمان يعصمهم عن عقاب الابد فيخرجون من النار
ولو بعد حين ولكنهم ايضا من المغرورين فانهم عرفوا ان الاخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا الى الدنيا
واثروها ومجرد الايمان لا يكفي للفوز قال الله تعالى واني لغفار لمن تاب وامن وعمل صالحا ثم اهتدى
وقال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين وقال النبي صلى الله عليه وسلم الاحسان ان تعبد الله كانك
تراه وقال تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فوعد المغفرة

في جميع القرآن منوط بالايمان والعمل الصالح جميعا لا بالايمان وحده فهؤلاء ايضا مغرورون اعني المطمئنين بالدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خوف فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا امثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فاما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في انفسهم وبالسنتهم ان كان لله معاد فنحن احق به من غيرنا ونحن اوفر حظا فيه واسعد حالا كما اخبر الله من قول احد الرجلين المتحاورين اذ قال وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وجملة امرهما كما نقل في التفسير ان الكافر منهما بنى قصرا بالف دينار واشترى بستانا بالف دينار وخدما بالف دينار وتزوج امراة بالف دينار وفي كل ذلك يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا يخرب هلا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى واشتريت بستانا يخرب هلا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون وزوجة من الحور العين وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ما هناك شيء وما قيل من ذلك فاكاذيب وان كان فليكونن لي في الاخرة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل اذ يقول لاوتين مالا وولدا فقال الله تعالى ردا عليه اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا كلا وقيل كان على العاص بن وائل دين لخباب بن الارت فتقاضاه فلم يعطه فقال له اني لا اقضي الا في الاخرة فقال له اذا صرت للاخرة فان لي هناك مالا وولدا فاقضيك منه فانزل الله افرايت الذي كفر باياتنا الاية وقال تعالى ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى الاية وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من اقيسة ابليس وذلك انهم ينظرون مرة الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون نعمة الاخرة عليها وينظرون مرة الى تاخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الاخرة كما قال تعالى ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم شعث غبر فيستحقرونهم ويقولون اهؤلاء من الله عليهم من بيننا ويقولون لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذي نظمه الشيطان في قلوبهم انهم يقولون قد احسن الله الينا بنعيم الدنيا وكل محسن فانه محب وكل محب فانه يحسن في المستقبل

المستقبل ايضا كما قيل لقد احسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي وانما يقاس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب اذ يقول لولا اني كريم عند الله لما احسن الي والتلبيس تحت ظنه ان كل محسن محب بل تحت ظنه ان انعامه عليه في الدنيا احسان فقد اغتر بالله اذ ظن انه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوي البصيرة يدل على الهوان ومثاله ان يكون للرجل عبدان صغيران يبغض احدهما ويحب الاخر فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويعلمه الادب ويمنعه من الفواكه وملاذ الاطعمة التي تضره ويسقيه الادوية المرة التي تنفعه والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد ويلعب وياكل ما يشتهي فيظن هذا العبد المهمل انه عند سيده محبوب كريم لانه مكنه من لذاته وشهواته وساعده على جميع اغراضه ولم يمنعه ولم يحجر عليه وهذا محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فانها مهلكات ومبعدات من الله وان الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه كما جاء في الخبر ان الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي احدكم مريضه وكان ارباب البصيرة اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك امارة المقت والاهمال واذا اقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين والمغرور اذا اقبلت عليه الدنيا ظن انها كرامة واذا صرفت عنه ظنها هوانا كما اخبر الله عنه فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن كلا قال الحسن كذبهما تعالى بقوله كلا اي ليس هذا بكرامتي ولا هذا بمعصيتي غنيا كان او فقيرا فهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان اما بالبصيرة واما بالتقليد اما البصيرة فبان يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعدا عن الله وتدرك ذلك من حملة علوم المكاشفة والمعرفة ... ولا يليق بعلم المعاملة واما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو ان يؤمن بكتاب الله ويصدق رسوله وقد قال تعالى ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون وفي تفسير سنستدرجهم من حيث لا يعلمون اي كلما احدثوا ذنبا احدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم كما قال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا

[illegible] نسخة

إنما يعني ذلك بما ورد في الكتاب والسنة فمن أتى به تخلص من هذا الغرور فإن منشأه
الجهل بالله وبصفاته فإن من عرفه سبحانه لا يأمن مكر الله ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات
ولينظر إلى فرعون وقارون وإلى ملوك الأرض كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا وقد حذر
الله مكره بقوله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقال تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا
الآية، وقال ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وقال إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا
فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من التنعم على
حب السيد بل ينبغي أن يحذر ذلك أن يكون مكرا منه مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه
فبأن يجب ذلك في حق الله مع تحذيره واستدراجه أولى فإذا من أمن مكر الله فهو مغتر ومنشأ
هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند المنعم واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان
ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى والشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما
يوافقه وهو التصديق بالدلالة على الكرامة وهذا هو حد الغرور. المثال الثالث
غرور العصاة من المؤمنين بقولهم إن الله كريم وإنا نرجو عفوه واتكالهم على ذلك وإهمالهم
الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين
وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصي العباد في بحر عفوه ونحن
موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح
الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في التقوى والورع
والخوف وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع كانوا خائفين وهم مع غاية
الفجور آمنون وهذا نهاية الاغترار بالله فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا
أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة وينسى المغرور
أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فقال إن ابني من أهلي فقيل له إنه ليس
من أهلك إنه عمل غير صالح وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه وأن نبينا محمدا صلى الله
عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في زيارتها ولم يؤذن له في الاستغفار
فجلس يبكي على قبر أمه رحمة لها بسبب القرابة فهذا أيضا اغترار بالله وذلك لأن الله يحب المطيع

ويبغض العاصي فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي
بحبه للأب المطيع ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضا بل الحق
أن لا تزر وازرة وزر أخرى ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه فهو كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى
بشرب أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزي والد عن
ولده شيئا وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه إلا على سبيل الشفاعة لمن لا
يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب فإن قلت
فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو مغفرته ورحمته فما هذا إلا كلام
صحيح مقبول في القلوب فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر
مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب لكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف
ذلك الغرور فقال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه
هواها وتمنى على الله وهذا هو التمني على الله لكن إبليس غير اسمه فسماه رجاء حتى خدع
به الجهلة وقد شرح الله الرجاء بقوله إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله
أولئك يرجون رحمة الله يعني أن الرجاء بهم أليق وهذه الآية ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على
الأعمال قال الله تعالى جزاء بما كانوا يعملون، وقال إنما توفون أجوركم يوم القيامة أفترى أن من
استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفي بالوعد مهما وعد ولا
يخلف بل يزيد فجاء الأجير فكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجرة ويزعم أن
المستأجر كريم أفتراه العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا للجهل بالفرق بين
الرجاء وبين الغرة. قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات
تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه وكما أن الذي يرجو
في الآخرة ولدا وهو في الدنيا لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع لم ينزل فهو معتوه فكذلك
من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور
وكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقي مترددا في أمر الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد
ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم حتى يتم فهو كيس فكذلك إذا آمن وعمل صالحا وترك السيئات

ويبقى متردداً بين الرجاء والخوف يخاف الا يقبل منه والا يدوم على ذلك وأن يختم له بالشر
ويرجو من فضل الله ان يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات
الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن اتباع الشهوات حتى لا يميل الى المعاصي
فهو اذاً كيس ومن عداه حمقى فهم المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من
اضل سبيلا ولتعلمن نباه بعد حين فعند ذلك يقولون ما اخبر الله عنهم ربنا ابصرنا وسمعنا
فارجعنا نعمل صالحا اي علمنا انه كما لا يولد ولد الا بوقاع ولا ينبت زرع الا بحراثة
وبذر فكذلك لا يحصل في الآخرة اجر الا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن
صدقك في قولك وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى
وما كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم ياتكم بلى الم يسمعكم سنة الله في عباده وانه يوفي
كل نفس ما كسبت وكل نفس بما كسبت رهينة فما الذي غركم بالله بعد اذ سمعتم وعقلتم
قالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير الآية فان قلت فاين مظنة الرجاء
وموضعه المحمود فاعلم انه محمود في موضعين احدهما في حق العاصي المنهمك اذا خطرت له
التوبة فقال الشيطان وانى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله فيجب عند هذا ان يقمع
القنوط بالرجاء ويتذكر ان الله كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وان التوبة
طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
ان الله يغفر الذنوب جميعا الآية وقال واني لغفار لمن تاب وعمل فاذا توقع المغفرة مع التوبة
فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور كما ان من ضاق عليه وقت الجمعة وهو
له ان يسعى اليها فقال له الشيطان ما تدركها فاقم في موضعك فكذب الشيطان وقام يعدو
يرجو ادراكها فهو راج وان استمر على التجارة واخذ يرجو ان تأخر الامام للصلاة لسبب
من الاسباب فهو مغرور الثاني ان يفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض
فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل
على الفضائل ويتذكر قوله تعالى قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والرجاء الاول
يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير

فكل توقع حث على توبة وعلى التشمر في العبادة فهو رجاء وكل توقع اوجب فتوراً في العبادة
وركوناً الى البطالة فهو غرور كما اذا خطر له ان يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له
الشيطان ما لك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة
والعبادة فهو الغرور وعند هذا يجب على العبد ان يخوف نفسه بغضب الله واليم عقابه
ويقول لها مع انه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ومع انه كريم خلد الكفار
في النار مع انه لا يضره كفرهم بل سلط المحن والمرض والفقر والجوع على طوائف من عباده
في الدنيا وهو قادر على ازالتها فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عذابه فكيف لا اخافه
فالخوف والرجاء قائدان يبعثان على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور ورجاء كافة
الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا واعراضهم عن الله وذلك غرور فقد
اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الغرور سيغلب على آخر هذه الامة وقد وقع الذي اخبر به صلى الله عليه وسلم
فقد كان الناس في العصر الاول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة
يخافون على انفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر
من الشبهات والشهوات ويبكون على انفسهم في الخلوات واما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين
مطمئنين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا واعراضهم عن الله زاعمين
انهم واثقون بكرم الله راجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون انهم عرفوا من كرم
الله وفضله ما لم يعرفه الانبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الامر يدرك
بالمنى وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء اولئك السلف الصالح وخوفهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الابدان يكون
امرهم كله طمعا لا خوف معه ان احسن احدهم قال يتقبل مني وان اساء قال يغفر لي فاخبر
عنهم انهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن ومثل ذلك اخبر عن النصارى
فقال عز وجل فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون
سيغفر لنا معناه انهم ورثوا الكتاب اي هم علماء ويأخذون عرض هذا الادنى اي شهواتهم
من الدنيا حلالا كان او حراما وقال تعالى ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد وآخر القرآن

يحذره ويخوفه لا يتفكر فيه متفكر الا ويطول حزنه ويعظم خوفه وان كان موقنا بما فيه ويرى الناس يهذونه هذا يخرصون على اخراج حروفه بتجويده ويتناظرون في رفعها وخفضها ونصبها وكأنهم يقرؤن شعرا من اشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيه ولا العمل بما فيه وهل في العالم غرور يزيد على هذا فهذه امثلة الغرور بالله عز وجل

بيان الفرق بين الرجا والغرور

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاصي الا ان معاصيهم اكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون انهم تترجح كفة حسناتهم مع ان ما في كفة السيئات اكثر وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناوله من اموال الناس والشبهات اضعافه ولعل ما يتصدق به هو من مال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن ان اكل الف درهم حرام يقاومها التصدق بعشرة دراهم من الحلال او الحرام وما هو الا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الاخرى الفا واراد ان تشيل الكفة الثقيلة الكفة الخفيفة وذلك غاية جهله نعم **ومنهم** من يظن ان طاعاته اكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر الله بلسانه او يسبحه ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضى الله طول النهار من غير حصر وعدد ويعد استغفاره وتسبيحه ويغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مرات كثيرة وقد كتبها عليه الحفظة ووعد الله العقاب على كل كلمة حيث قال ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهو ابدا يتامل في فضل التسبيح والتهليل ولا يلتفت فيما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين وهذا محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه اجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى يكفه عن جملة من مهماته فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته من الاجرة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الاعلى ونعيمه ما هذه الا مصيبة عظيمة لمن يتفكر فيها فقد دفعنا الى امر ان شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وان صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين فما هذه اعمال من يصدق بالقران ونحن نبرا الى الله ان نكون من اهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما اجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلب ان

يخشى ويتقى ولا يغتر به اتكالا على اباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى

بيان اصناف المغترين واقسام فرق كل صنف من الاصناف الاربعة

الصنف الاول اهل العلم والمغترون منهم فرق فرقة منهم احكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا انهم عند الله بمكان وانهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل شفاعتهم لكرامتهم عليه وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا ان العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وعلم المكاشفة هو العلم بالله وبصفاته وهو المسمى بالعادة علم المعرفة فاما علم المعاملة فكمعرفة الحلال والحرام ومعرفة اخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة فكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل ومثال هذا كمريض به علة لا يزيلها الا دوا مركب من اخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطبا فسعى في طلب الطبيب وهاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدوا وفصل له الاخلاط ومقاديرها وانواعها ومعادنها وعلمه كيفية دق كل واحد منها وخلطه وعجنه فتعلم ذلك منه وكتب به نسخة عنده ورجع الى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها افترى ان ذلك يغني عنه من مرضه شيئا هيهات ولو كتب منه الف نسخة وعلمها الف مريض حتى شفي مرضاهم لم يغن ذلك من مرضه شيئا الى ان يزن الذهب ويشتري الدوا ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد الاحتما فاذا فعل ذلك فهو على خطر من شفايه فكيف اذا لم يشربه اصلا فمهما ظن ان ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي احكم علم الطاعات ولم يعملها واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها واحكم علم الاخلاق المحمودة ولم يتصف بها واحكم علم الاخلاق المذمومة ولم يطهر نفسه منها فهو مغرور اذ قال الله تعالى قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها ولم يقل قد افلح من علم كيفية تزكيتها وكتب علمها وعلمه للناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدوا لا يزيل المرض انما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم

بجلب الثواب ويورد عليه الاخبار الواردة في فضائل العلم وان كان المسكين معتوها مغرورا
وافق ذلك مراده وهواه واطمأن اليه واهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان اتذكرني
فضل العلم وتنسيني ما ورد في ذم العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فمثله كمثل الكلب
وقوله مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا فاي خزي اعظم من التمثيل بالكلب والحمار
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا وقال صلى الله عليه وسلم
شر الناس العلماء السوء وقال ابو الدرداء ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم
ولا يعمل سبع مرات اي ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر
الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهذا
وامثاله مما اوردناه في باب فضل العلم الاخرة اكثر من ان يحصى الا انه مما لا يوافق هوا
العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يهواه وذلك عين
الغرور فانه ان نظر بعين البصيرة فمثاله ما ذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذي اخبره بفضل
العلم هو الذي اخبر بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله اشد من حال الجهلة فبعد ذلك
ان اعتقد انه على خير غاية الغرور واما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وصفاته
واسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع امر الله فغروره اشد ومثاله مثال من اراد خدمة
ملك من الملوك فعرف الملك وعرف اخلاقه واوصافه ولونه وشكله وعادته في مجلسه
ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب منه وما يرضى به او عرف ذلك الا انه قصد خدمته
وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة
وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا
بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا اليه بمعرفته له ولنسبه واسمه
وبلده وشكله وصورته وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا مغرور جدا
اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة حبيبه الملك خاصة وبمعرفة ما يحبه ويكرهه
لكان اقرب لنيل مراده من قربه والاختصاص به بل تقصيره في التقوى واتباعه الشهوات
يدل على انه لم ينكشف له من معرفة الله الا الاسامي دون المعاني اذ لو عرف الله حق معرفته
اتقاه

فلا يتصور ان يعرف الاسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد اوحى الله تعالى الى داود خفني كما تخاف
السبع الضاري نعم من يعرف من الاسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكانه ما عرف الاسد
فمن عرف الله عرف من صفاته انه لو اهلك العالمين لم يبال ويعلم انه مسخر في قدرته من لو اهلك
مثله الوفا وابد عليهم العذاب لم يؤثر ذلك فيه ابدا ولم تاخذه عليه رقة ولا اعتراه جزع ولهذا
قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور راس الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود رضي الله عنه
كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار به جهلا واستفتي الحسن في مسألة فاجاب فقيل له ان
فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رايت فقيها قط انما الفقيه من قام ليله وصام نهاره وزهد
في الدنيا وقال ايضا الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فان قبلت منه حمد الله وان
ردت عليه حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن الله امره ونهيه وعلم من صفاته ما احبه
وما كرهه وذلك هو العالم بالحقيقة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين فاذا لم يكن
بهذه الصفة فهو من المغرورين وفرقة اخرى احكموا العلم والعمل وواظبوا على
الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي الا انهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة
عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وارادة السوء للاقران والنظراء
وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم ان ذلك مذموم فهو مكب عليه
غير محترز منه ولم يلتفت الى قوله صلى الله عليه وسلم ادنى الرياء شرك والى قوله صلى الله عليه وسلم
لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر والى قوله صلى الله عليه وسلم الحسد ياكل الحسنات كما
تاكل النار الحطب والى قوله صلى الله عليه وسلم حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب
كما ينبت الماء البقل الى غير ذلك من الاخبار فهؤلاء زينوا ظواهرهم واهملوا بواطنهم ونسوا
قوله صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم فتعهدوا
الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من اتى الله بقلب سليم ومثال
هؤلاء كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة او كبيت مظلم وضع السراج على ظهره
حتى استنار ظاهره وكرجل قصد ضيافة الملك ودعاه الى داره فجصص باب داره وترك
المزابل في صدر الداره فلا يخفى ان ذلك غرور بل اقرب مثال اليه رجل زرع زرعا فنبت
داره

ونبتت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رؤوس
الحشيش واطرافه فينقطع فلا يزال يقوى اصله وينبت لان مغارس المعاصي هي الاخلاق الذميمة
في القلب فمن لا يطهر القلب منها لم تتم له الطاعات الظاهرة الا مع الافات الكثيرة بل هو كمريض
ظهر به جرب قد امر بالطلا وشرب الدوا فاشتغل بالطلا ليزيل ظاهره والدوا يقلع مادته من باطنه فقنع
بالطلا وترك الدوا وبقي يتناول ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دايم به يتفجر
من المادة التي في الباطن **وفرقة اخرى** علموا ان هذه الاخلاق الباطنة وعلموا انها مذ
مومة من جهة الشرع الا انهم لعجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وانهم ارفع عند الله
من ان يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم فاما هم فاعظم
عند الله ان يبتليهم بمثل ذلك ثم اذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو قالوا ما
هذا كبر وانما هذا طلب عز الدين واظهار شرف العلم وارغام انف المخالفين من المبتدعين
فاني لو لبست الدون من الثياب وجلست في دون المجالس لشمت بي الاعدا وفرحوا بذلك
وكان فيه ذل على الايمان ونسي المغرور ان عدوه الذي حذره الله منه هو الشيطان وانه
يفرح بما يفعله ويسخر منه وينسى ان النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا ارغم الكافرين
وينسى ما روي من الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضي الله
عنه على بذاذة زيه عند قدومه الشام فقال انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا
نطلب العز في غيره ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والدبيقي
والابريسم المحرم والخيول المسومة ويزعم انه يطلب به عز الدين وشرف الدين وهيهات
وكذلك مهما اطلق لسانه بالحسد في اقرانه او في من رد عليه كلامه لم يظن بنفسه ان ذلك
حسد ويقول ان هذا غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه ولم يظن بنفسه الحسد حتى
يعتقد انه لو طعن في غيره من اهل العلم او منع غيره من رياسة او زوحم فيها هل كان
غضبه مثل غضبه الان فيكون غضبه لله ام لا مهما طعن في عالم اخر بل ربما يفرح بذلك
فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من خبث باطنه وهكذا يرائي بعلمه وعمله واذا
خطر له خاطر الريا قال هيهات انما غرضي اظهار العلم والعمل ليقتدي الخلق بي ليهتدوا الى دين

دين الله تعالى ويتخلصوا من عذاب الله افلا يتامل المغرور انه ما يفرح باقتدا الناس بغيره كما يفرح هو
باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد
معالجتهم فانه لا يفرق بين ان يحصل شفاؤهم على يده او على يد طبيب اخر وربما يذكر له هذا
فلا يخليه الشيطان ايضا ويقول انما ذلك لانهم اذا اهتدوا بي كان الاجر لي وانا فرحي
بثواب الله لا بقبول الخلق هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على انه لو اخبره نبي بان
ثوابه في الخمول واخفا العلم اكثر من ثوابه في ظهوره لما فعل ولو حبس وقيد لاحتال حتى
يرجع لموضع تدريسه ومجلس وعظه وكذلك يدخل على السلطان ويثني عليه ويتواضع له واذا خطر
له ان التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع في مالهم
واما انت فغرضك ان تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر اعدائك عنك وتوجه
الخلق راحة باجبار رزق فلك به الاجر من الله والدعا من الناس والله يعلم من باطنه انه
لو ظهر لبعض اقرانه عند ذلك السلطان حظ فصار يشفع في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين
لثقل ذلك عليه وحسده ولو قدر ان يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه
لفعل وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم الى ان ياخذ من اموالهم فاذا قيل له انه حرام وفق له الشيطان
وقال له هذا مال السلطان مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وانت امام من المسلمين وعالم من علمائهم
وبك قوام الدين افلك حق في بيت مال المسلمين افلا يحل لك ان تاخذ منه قدر كفايتك وانت
تعطي به الاقارب وتبر به الاجانب فيغتر المسكين بهذا التلبيس في ثلاثة امور احدها في قوله
انه مال الله لا مالك له وهو يعرف انه ياخذ الخراج من المسلمين واهل السواد والذين اخذ منهم احيا
واولادهم وورثتهم احيا وغاية الامر وقوع اختلاط اموالهم ومن غصب مائة دينار من
عشرة انفس وخلطها فلا خلاف في انه مال حرام ولا يقال انه مال لا مالك له ويجب ان يقسمه
بين العشرة ويرد على كل واحد عشره وان كان لكل واحد قدر اختلط على الاخر **الثاني**
في قوله هو لمصالح المسلمين وبك قوام الدين فلعل الذين فسد دينهم واستحلوا الاموال ورغبوا
في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والاعراض عن الاخرة بسببه اكثر من الذين زهدوا في الدنيا
ورفضوها واقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا امام

الدين اذ الامام هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الدنيا والاقبال على الاخرة كالانبيا والصحابه وعلما السلف والدجال هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الاخرة والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا انفع للمسلمين من حياته ومثله كما قال عيسى عليه السلام العالم السو كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الما ولا هي تترك الما يخلص الى الزرع واصناف غرور اهل العلم والوعظ في هذه الازمنة المتاخرة لا تنحصر لكنا نبهنا بالقليل على الكثير

وفرقة اخرى احكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي وتفقدوا اخلاق النفس وصفات القلب من الريا والحسد والكبر وجاهدوا انفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ولكنهم بعد مغرورون اذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خدع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها واهملوها وانما مثاله مثال من يريد تنقية الزرع من حشيش فدار عليه وفتش فلم يترك فيه شيا فيما ظهر له الا انه لم يفتش عما لم يخرج راسه بعد من تحت الارض وظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من اصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد قلعها فاذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت فافسدت اصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقايق فتراه يسهر ليله ويتعب نهاره في جميع العلوم وترتيبها وتحسين الفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الافاق والثنا عليه بالعلم والورع والتقديم له في المهمات والاجتماع حوله للاستفاده والتلذذ بحسن الاصغا عند الايراد وبتحريك الرووس عند كلامه والبكا عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والتمكن به من اطلاق الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا من نية مصيبة الدين ولكن على دلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص ولعل هذا المسكين المغرور رجاوه في الباطن بما انتظم له من امر الامارة وعز الانقياد والتوقير وحسن الثنا فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه غير الزهد بما ظهر من اعماله فعساه يتشوش عليه قلبه

فعساه يتشوش عليه قلبه ويختلط اوراده وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يكذب في تغطية عيبه وعساه يوثر بالكرامة والموالاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبو خاطره عمن يعرفه على وفق حاله وربما يوثر بعض اصحابه على بعض ويوهم انما اثره لفضل فيه وورع وما ذاك الا لخدمته وطوعه له وثنائه عليه ولعل الصحابة يستفيدون منه ويرغبون عنه وهو يظن ان قبولهم له لاخلاصه وصدقه فيحمد الله على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ويرى ان ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعساه لو وعظ بمثل ذلك الثواب ايثار الخمول والعزلة واخفا العلم لم يرغب فيه لفقد عز العزلة والاخفا لذة القبول وعز الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بني ادم انه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي وعساه يصنف ويجتهد ظانا انه ينتفع به وباطنه يريد استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدعي تصنيفه ونسبه لنفسه لثقل ذلك عليه مع علمه بان ثواب الاستفادة من التصنيف انما يرجع للمصنف والله عالم انه للمصنف لا من ادعاه ولعله في تصنيفه لا يخلو عن الثنا على نفسه اما صريحا بالدعاوي واما ضمنا بالطعن في غيره ليظهر من طعنه في غيره انه افضل ممن طعن فيه ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزوه الى قايله وما يستحسنه لعله لا يعزوه لقايله ليظن انه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له او يغيره كالذي يسرق قميصا فيجعله قبا حتى لا يعرف ولعله يزين لفظه بحسن التسجيع ويرصع نظمه ويكثر من ذلك ويرى ان نيته ترويج الحكمة وتحسينها وترتيبها ليكون انفع للناس وعساه غافل عما روي ان بعض الحكما وضع ثلثمائة كتاب في الحكمة فاوحى الله الى نبي زمانه قل له قد ملات الارض نفاقا واني لا اقبل من نفاقك شيا ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين اذا اجتمعوا تلطفوا واثنوا على بعضهم بعضا واذا افترقوا اخذ كل يتفحص بعيب صاحبه ويشتكي لنفسه ويتوجع ان كان اكثر اتباعا من غيره وكل يتمنى اذعان اتباعه خيرا من اتباع غيره وان انقطع عنه واحد منهم وذهب لغيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه ويرجح ان ينبني على اشتغاله كما كان قبل التحيز عنه الى فية اخرى انفع له ولعل واحدا منهم اذا اختلج فيه مبادي الحسد

ولم يقدر على الطهارة فيشتغل بالطعن في دين الذي يجلسه وفي ورعه ويقول لم غضبت عليه
لله لا للنفس ويتبع لن تعيب عنه فان اثنى عليه حسد ذلك وربما يقطعه ويقول اذا ذكر عيوب
الناس عنده يوهم انه كاره لغيبة المسلمين وفي قلبه راض بذلك ويريده ويكفيه اطلاع الله عليه
في ذلك وعلمه بما اخفاه باطنه لظاهره كصفة للمنافقين فهذا وخوه من خفايا العيوب الباطن
لا يدركها الا الاكياس ولا ينزه منها الا الاقويا ولا مطمع فيه لامثالنا من الضعفا الا ان اقل الدرجات
ان يعرف الانسان عيوب نفسه ويكرهها ويحرص على اصلاحها واذا اراد الله بعبد خيرا بصره عيوب
نفسه ومن سرته حسناته وساته سيأته فهو مرجو الحال وامره اقرب من المغرور المزكي لنفسه
الظان انه من خير خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا الذنوب مع الاهمال
هذا غرور الذين حصلوا العلم ولكن قصروا في العمل به ولنذكر الان غرور الذين قنعوا
بالعلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم وهم بذلك مغترون اما لاستغنايهم عن اصل العلم واما لاقتصارهم
عليه فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية
الجارية بين الخلق لمصالح المعايش وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما
ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة والبطن
عن الحرام والرجل عن المشي الى السلاطين الظلمة وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر
والرياء والحسد وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين احدهما من حيث العمل والاخر من
حيث العلم اما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء
واشتغل بتكراره وتعليمه لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك
محتاج لتعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه انه رجل
لا يحيض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامراة وتسالني عنه وذلك غاية الغرور وكذا
المتفقه المسكين قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الهوى والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات
الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل
بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبينات وبكتاب
الحيض ولا يحتاج لشي من ذلك في عمره لنفسه واذا احتاج غيره له كان في المفتين كثرة وفيه
دهاه

الشيطان وربما يعلم اذ يظن المسكين المغرور بنفسه انه مشغول بفرض دينه وما يدري ان الاشتغال
بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وكان قد قصد
بالفقه وجه الله فانه ان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه
وقلبه فهذا غروره من حيث العمل واما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوي وظن
انه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسوله وربما طعن في المحدثين وقال انهم نقلة اخبار وحملة اسفار
لا يفقهون وترك ايضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله بادراك جلاله وعظمته
وهو العلم الذي يورث الخوف والخشوع ويحمل على التقوى فتراه امنا من الله مغترا به متكلا
على انه لا بد وان يرحمه فانه قوام دينه وانه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام وقد
ترك العلوم التي هي اهم وهو غافل مغرور وسبب غروره ما سمع من تعظيم الفقه ولم يدر ان
الفقه بالله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى
اذ قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا
اليهم الاية والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال
بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال وبدفع القتل والجراحات والمال في طريق
الله آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب
التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله فاذا مات العبد ملوثا بتلك الصفات ت
كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج
على علم خرز الراوية والخف ولا شك في ان ذلك لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه
ليس من الحج في شيء وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه
على الخلافيات ولم يهمه الا تعلم طريق المجادلة والالزام وافحام الخصوم ودفع الحق
لاجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات ارباب المذاهب
والتفقد لعيوب الاقران والتلقف لانواع التشنيعات المؤذية وهؤلاء هم سباع الانس
طبعهم طبع الايذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الاقران قران
فلم علم لا يحتاجون اليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق الى الله بمحو الصفات

المذمومة ويبدلها بالمحمودة فانهم يتبجحون بذلك ويسمونه التشويق وكلام الوعاظ وانما التحقيق
عندهم معرفة تفاصيل العربية التي تجري بين المتصارعين في الجدل وتقرير ما قد جمعوا مما جمعه الذين
من قبلهم في علم الفتاوى ولكن زادوا اذ اشتغلوا بما ليس من فرض الكفاية ايضا بل جميع دقائق
الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف فاما ادلة الاحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما واما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع و
التركيب والتعدية فانما ابدع لاظهار الغلبة والافحام واقامة سوق الجدل به فغرورهم اولى
اشد كثيرا وافحش من غرور من قبلهم وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الاهوا
والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة وافترقوا في ذلك
فرقا كثيرة واعتقدوا انه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمان الا بان يتعلم جدلهم وما يسمونه
ادلة عقائدهم وظنوا انه لا احد اعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لا يعتقد مذهبهم
ويتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم الى نفسها ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة هي التي تدعوا
الى غير السنة والمحقة هي التي تدعوا الى السنة والغرور شامل لجميعهم اما الضالة فلغفلتها
عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وانما اتيت من حيث
انها لم تتهم رايها ولم تحكم اولا شروط الادلة ومنهاجها فرات السنة دليلا والدليل شبهة
وتخييلا واما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث ظنت ان الجدل اهم الامور وافضل القربات
في دين الله تعالى وزعمت انه لا يتم لاحد دينه ما لم يفحص ويبحث وان من صدق الله ورسوله
من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن وليس بكامل الايمان ولهذا الظن الفاسد قطعت اعمارها
في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم فاهملت تفقد
نفوسها وقلوبها حتى عميت عليها ذنوبها وخطاياها الظاهرة والباطنة وهي تظن ان
اشتغالها بالجدل اولى واقرب عند الله ولكنها لالتذاذها بالغلبة والافحام وعز الرياسة
عميت بصيرتها فلم تلتفت الى القرن الاول وان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق
وقد ادركوا كثيرا من اهل البدع والاهوا فما جعلوا اعمارهم ودينهم غرضا للخصومات
والمجادلات ولا اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم واحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا

٧٣

الا حاجة وتوسموا بها عند الحاجة فذكروا انه قدر الحاجة ما بذل الضال على ضلالته فاذا راوه
مصرا عليها هجروه ولم يعرضوا عنه والبغض في الله ولم يلزموا الملاحة معه طول العمر بل قالوا
ان الحق هو الدعوة الى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة الى السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما
على الصحابة وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى احمر وجهه من الغضب فقال
ابهذا امرتم ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما امرتم به فاعملوا وما نهيتم
عنه فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا اولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد بعث الى كافة الخلق فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لالزام والحام وتحقيق حجة ودفع يقعد معهم
سوال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القران المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لان
ذلك تشويش القلوب ويستخرج منها الاشكالات والشبهات ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم
وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وان يعلم اصحابه كيفية الجدال
والالزام ولكن الاكياس واهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا اهل الارض وهلكنا لم تنفعنا
نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس علينا في المجادلة اكثر مما كان على الصحابة رضي الله عنهم
مع اليهود والنصارى واهل الملل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلتهم فما لنا نضيع العمر
ولا نصرفه الى ما ينفعنا يوم القيامة في يوم فقرنا وفاقتنا ولم نخوض فيما لا نامن على انفسنا
الخطا في تفاصيله ثم نرى ان المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب
تشددا في بدعته واشتغالنا بمخاصمة انفسنا ومجادلتها ومجاهدتها لنترك الدنيا
للاخرة اولى بنا هذا لو كان لم ننه عن الجدال والخصومة فكيف وقد نهينا عن ذلك فكيف
ندعوا الى السنة بترك السنة فالاولى بنا التفقد لانفسنا والنظر من صفاتها فيما يبغضه
الله وما يحبه لنتنزه عما يبغضه ونتمسك بما يحبه وفرقة اخرى اشتغلوا
بالوعظ والتذكير واعلاهم رتبة من يتكلم في اخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر
والشكر والتوكل والزهد والاخلاص واليقين والصدق وهم مغرورون يظنون بانفسهم
اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها انهم متصفون بها وهم منفكون عنها عند الله تعالى
منفكون
بيان

وغرورهم اشد لانهم يعجبون بانفسهم ويظنون انهم يتجرون في علم المحبة لانهم
محبون لله وما ظفروا على التحقيق فانه الاخلاص لانهم مخلصون وما وقفوا على خفايا
عيوب النفس لانهم عنها منزهون ولولا انهم مقربون عند الله لما عرفوا معنى القرب
والبعد وعلم السلوك الى الله وكيف قطع المنازل في طريق الله فالمساكين بهذه الظنون
يرون انهم من الخائفين وهم آمنون من مكر الله ويرون انهم من الراجين وهم من المغترين
المضيعين ويرون انهم من الراضين بقضاء الله وهم من الساخطين ويرون انهم
من المتوكلين على الله وهم من المتوكلين على العز والجاه والمال والسبب ويرون انهم من
المخلصين فهم من المرائين يصفون الاخلاص فيتركون الاخلاص في الوصف ويصفون
الريا ويذكرونه ويراؤون بذكرهم ليعتقد فيهم انه لولا انهم مخلصون لما اهتدوا الى دقائق
الريا ويصفون الزهد في الدنيا لشدة حرصهم على الدنيا وقوة رغبتهم فيها فهم يدعون الى
الله تعالى وهم منه فارون ويذكرون بالله وهم له ناسون ويصرفون الناس عن الخلق
وهم للخلق منصرفون لو منع احدهم ان يجلس مكانه ضاقت عليه الارض بما رحبت ويزعم انما
غرضه اصلاح الناس ولو ظهر من اقرانه من يقبل الخلق عليه ويصلحوا على يديه لمات
حسدا ولو اثنى واحد من المترددين اليه على غيره لابغضه ومقته فهؤلاء
اعظم الناس غرة وابعدهم عن الصفات لان المرغب في الاخلاق المحمودة والمنفر عن
المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها وهؤلاء قد علموا ذلك ولم ينفعهم وشغلهم
حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالجون وفيم سبيل تخويفهم
وانما الخوف بما يتلونه على عباد الله فيخافون ولسوا بخائفين نعم يظن احدهم فيخوفون
بنفسه انه موصوف بهذه الصفات الممدوحة فيمكن ان يدل على طريق الامتحان
والتجربة وذلك انه ان كان مثلا يدعي حب الله فما الذي تركه من محاب الدنيا
لاجله وان كان يدعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف وان كان يدعي الزهد
فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله وان كان يدعي الانس بالله فمتى طاب
له الخلق وهو متى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل قلبه يمتلي حلاوة اذا احدق

74

به المريدون وتراه يستوحش اذا خلا بالله فهل رأيت محبا انسا يستوحش من محبوبه ويستروح
منه الى غيره والاكياس يمتحنون انفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزيين ونفر
بل يتوثقون بالله عليها والمغترون يحسنون الظن بانفسهم فاذا كشف لهم الغطاء افتضحوا بل
يطرحون في النار فتندلق اقتابهم فيدورون بها كما يدور الحمار بالرحى كما ورد في الخبر لانهم يامرون
بالخير ولا ياتونه وينهون عن الشر وياتونه وانما وقع الغرور لهؤلاء من حيث انهم يصادفون في قلوبهم بهم
شيئا ضعيفا من اصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك
على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا انهم ما قدروا مع ذلك على وصف ذلك وما رزقهم
الله علمه وما ينفع الناس بكلامهم فيها الا لاتصافهم بها وذهب عنهم ان القبول للكلام والكلام
للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وان كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارقوا احاد
المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل ربما زاد امنهم وقل خوفهم فقد
وظهر الى الخلق ميله وضعف في قلبه حبه لله وانما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواه
بفصاحته ويصف الصحة والشفا وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفا واسبابه وما وان
يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به وانما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب وظنه عند
جهله بحقيقة الصحة انه صحيح غاية الجهل كذلك العلم بالخوف والحب والزهد والتوكل وسائر هذه
الصفات غير الاتصاف بحقائقها ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو
مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القران والا خبار
ووعظ الحسن البصري وامثاله. **وفرقة اخرى** عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ
وهم وعاظ اهل الزمان كافة الا من عصمه الله على الندور في بعض اطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه فقد
فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب
وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها فاكثر همهم في الاسجاع والا ستشهاد
بالاشعار الفراقية والوصالية وغرضهم ان تكثر في مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على اغراض
فاسدة فهؤلاء شياطين الانس ضلوا واضلوا عن سوا السبيل فان الاولين وان لم يصلحوا انفسهم
فقد اصلحوا غيرهم وصححوا وعظهم وكلامهم واما هؤلاء فيصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق الى

على الغرور بالله بل تبسط الرجاء وتحملهم كلامهم على جرأة على المعصية ورغبة في الدنيا لاسيما اذا كان الواعظ
متزينا بالثياب والخيل فانه يشهد من قرنه الى قدمه شدة حرصه على الدنيا فما يفسد هذا المغرور
اكثر مما يصلحه بل لا يصلح اصلا ويضل خلقا كثيرا فما يخفى وجه كونه مغرورا وفرقة اخرى
منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد واحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات بالفاظها ويؤدونها
من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر وبعضهم في المساجد وبعضهم في الاسواق
وكل منهم يظن انه اذا تميز بهذا القدر وارتفع به اذ حفظ كلام الزهاد واهل الدين فقد افلح ونال
الغرض من غير ان يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ولكنه يظن ان حفظه لكلام الصالحين يكفيه
فغرور هؤلاء اظهر من غرور من قبلهم وفرقة اخرى منهم استغرقوا اوقاتهم في سماع
الحديث وجمع رواياته الكثيرة وطلب الاسانيد الغريبة العالية فهمة احدهم ان يدور في البلاد
ويرى الشيوخ ليقول انا اروي عن فلان وقد لقيت فلانا ومعي من الاسنادات ما ليس مع غيري
وغرورهم على وجوه منها انهم كحملة الاسفار فانهم لم يصرفوا العناية لفهم معاني السنة فعلمهم
قاصر ليس معهم الا النقل ويظنون ان ذلك يكفيهم ومنها انهم اذا لم يفهموا لا يعملون
بما فيها وقد يفهمون بعضها ايضا ولا يعملون ومنها انهم يتركون العلم الذي هو فرض
عينهم وهو معرفة معالجة القلب ويشتغلون بتكثير الاسنادات وطلب الاسانيد العالية
ومنها وهو الذي اكب عليه اهل الزمان انهم ايضا لا يقومون بشرائط السماع فان السماع بمجرده
وان لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول الى اثبات الحديث اذ التفهم بعد الاثبات
والعمل بعد التفهم والاول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا
من الجملة على السماع ثم لم يحكموا حقيقة السماع فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ
نائم والصبي يلعب ثم يكتب اسم الصبي في طبقة السماع ثم في البالغ من يحضر ربما يغفل ولا يسمع
ولا يصغي ولا يضبط وربما اشتغل بحديث صاحبه او ينسخ والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير
ما يقرأ عليه لم يشعر به وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل في الحديث ان يسمعه الصحابي من
رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ
عن السماع وكذا سماع التابعي من الصحابي صار سماعك من الراوي كسماع التابعي من الصحابي

٧٥

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ان تصغي لتحفظ وتروي كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير
منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا او اخطأ علمت خطأه ولحفظه طريقان احدهما ان تحفظ بالقلب
وتستديمه بالذكر كما تحفظ ما يجري على سمعك في مجاري الاحوال والثاني ان تكتب
كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه عندك لئلا تمتد اليه يد من يغيره حتى لا تصل اليه يد من
يغيره واذا لم تحفظه لم تشعر بتغيره فيكون محفوظا بقلبك او بكتابك يكون عونا لكتابك تذكرا
لما سمعته وتأمن فيه من التحريف والتغيير فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على
سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رايت نسخة لذلك وجوزت ان يكون ما فيه مغيرا
او مبدلا حرفا منها او النسخة التي سمعتها لم يجز ان تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك
لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة
صحيحة استوثقت عليها بالمقابلة فمن اين تعلم انك سمعت ذلك قال الله تعالى ولا تقف ما ليس
لك به علم وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان سمعنا ما في هذا الجزء اذا لم يوجد الشرط الذي ذكرنا
كذب صريح واقل شروط السماع ان يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير
ولو جاز ان يكتب السماع للصبي وللغافل والنائم والذي ينسخ لجاز ان يكتب سماع الطفل
في المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ فالصبي الذي يلعب والغافل والمشتغل بالنسخ عن السماع
ليس يفهم ولا يحفظ فان استجرأ جاهل فجوز ان يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين
في البطن فان قال الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فاذا ينفع هذا وهو انما
ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذا صار شيخا على ان يقول سمعت بعد بلوغي اني
في صباي حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا ادري ما هو فلا
خلاف ان الرواية هكذا لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز اثبات سماع صبي
في المهد فذلك غاية الجهل من اين يوجد هذا وهل للسماع مستند الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري
ما سمع فهذا افحش انواع الغرور وقد بلي به اهل الزمان ولو احتاط اهل الزمان
لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوا في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة الا ان للمحدثين في

[illegible]

ذلك جهل وقبولهم خلاف المسالك أن يشترطوا ذلك فينفضح جاههم وتقل أيضا احاديثهم
التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك واقتنعوا فاصطلحوا على انه ليس يشترط الا ان يبلغ
سمعه دمدمة وان كان لا يدري ما يجري وصحة السماع لا تعرف من علم الحديث لانه ليس من
علم الحديث بل هو من علم علما الاصوليين بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين
اصول الفقه فهذا غرور هولا ولو سمعوا على الشرط لكانوا مغرورين لاقتصارهم على النقل
وفي افنائهم اعمارهم في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني
الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الاخرة يكفيه حديث واحد عمره كما روي
عن بعض السلف انه حضر مجلس سماع فكان اول حديث روي قوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام
المرء تركه ما لا يعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى افرغ منه ثم اسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس
الذين يحذرون الغرور وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر والعروض
وغريب اللغة واغتروا به وزعموا انهم علما بالامة اذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب
والسنة بعلم اللغة والنحو فافنوا اعمارهم في دقائق النحو وحفظ الشعر وغريب اللغة ومثالهم مثل من
يفني عمره في تعلم الخط وتصحيح الحروف ويزعم ان العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتابة فلا بد من
تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعلم انه يكفيه ان يتعلم اصل الخط بحيث يمكن ان يقرا كيف ما كان
والباقي زيادة وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في لغة
العرب كالمضيع عمره في لغة الترك والهند وانما فارقتها لاجل ورود الشريعة بلغة العرب ويكفي
من اللغة علم الغريبين من الاحاديث والكتاب ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فاما
التعمق فيه الى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه واعرض عن
معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهو مغرور ومثاله مثل من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف
في القراءة واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف ظروف
وادوات ومن احتاج لشرب السكنجبين ليزيل ما به من الصفرا ضيع اوقاته في
تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فيكون من جملة المغرورين فهكذا غرور اهل النحو
واللغة والادب والتدقيق في مخارج الحروف للقران بما تعمقوا فيها وتجردوا لها الكن

76

ما يحتاج اليه في تعليم العلوم التي هي فرض عين فاللب الاقصى هو العمل والذي فوقه هو
معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو سماع الالفاظ
وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بالاضافة الى المعرفة ولب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو
العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهي القشرة العليا العلم بمخارج الحروف والقانعون بهذه الدرجات
كلهم مغترون الا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فتجاوزها الى ما ورائها
حتى وصل الى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه وازجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الاعمال
وتصفيتها عن الشوائب والافات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم
خدم له ووسائل اليه وقشور له ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء
كان في المنزل القريب او المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها اربابها
فاما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم انه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد اصحابها انهم
ينالون بها المغفرة من حيث انها علوم فكان الغرور فيها اقل من الغرور بعلوم الشرع لان العلوم
الشرعية مشتركة في انها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه
هو المنتهى والثاني محمود للوصول به الى المقصود الاقصى فمن اتخذ القشر مقصدا وعرج عليه فقد
اغتر به وفرقة اخرى عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا ان حكم العبد بينه وبين
الله يتبع حكمه في مجلس القضا فوضعوا الحيل في دفع الحقوق واساوا تاويل الالفاظ
المبهمة واغتروا بالظواهر واخطاوا فيها وهذا من قبيل الخطا في الفتوى والغرور فيه والخطا
في الفتاوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة الا الاكياس منهم فنشير الى امثلة لمثل ذلك
فتواهم ان المراة اذا ابرات من الصداق برئ الزوج فيما بينه وبين الله وذلك خطا
بل الزوج قد يسي الى الزوجة ويضيق عليها الامور فتضطر الى طلب الخلاص منه فتبرئ الزوج
فهذا ابرا عن غير طيبة نفس وقد قال تعالى فان طبن لكم عن شي منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا
وطيبة النفس غير طيبة القلب فالقلب قد يريد ما لا تطيب به النفس كالانسان يريد الحجامة
بقلبه ولكن تكرهها نفسه فانما طيبة النفس ان تسمح نفسها بالابرا عن غير ضرورة تقابل الابرا
حتى اذا رددت بين ضررين اختارت اهونهما فهذه مصادرة على التحقيق باكراه الباطن

نعم

نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على ما في القلوب والأغراض وإنما ينظر إلى الأسباب الظاهرة فيرى أنها لم تكن
بسبب ظاهر فأما الإكراه الباطن فليس يطلع الخلق عليه ولكن سيقضي بينهما القاضي الأكبر في صعيد القيامة القضا
لم يكن هذا محسوبا ولا معتدا به في تحصيل الأجر وكذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا عن طيبة نفس منه
فلو طلب من شخص مالا على ملأ من الناس فاستحيى من الناس إلا أن يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله
بخلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم ملامة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار
أهون الألمين وهو ألم تسليم المال فسلمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام
البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين والسؤال في مظنة الحياء
والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله فإن الباطن عند الله ظاهر
وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك الظاهر لقوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك
ما يعطى أيضا لاتقاء لسانه أو لسان شعر يشعر به فهو حرام عليه ألا ترى إلى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث
قال يا رب قد غفرت لي فكيف لي بخصمي فأمر بالاستحلال منه وكان قد مات فأمر بندائه في صخرة
بيت المقدس فنادى يا أوريا فقال لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد فقال إني أسأت إليك
في أمر فهبه لي قال قد فعلت ذلك لك فانصرف داود وقد طابت نفسه فقال له جبريل عليه
السلام هل ذكرت له ما فعلت معه قال لا قال فارجع وبين له فرجع فناداه فقال لبيك يا نبي الله فقال
إني أذنبت إليك ذنبا قال ألم أهبه لك قال أولا تسألني ما ذلك الذنب قال ما هو يا نبي الله قال كان
من شأن المرأة فانقطع الجواب فقال يا أوريا ألا تجيبني فقال يا نبي الله ما هكذا تفعل الأنبياء حتى أقف
معك بين يدي الله فبكى داود وصاح فوعده الله أن يستوهبه منه في القيامة فهذا ينبه على أن
الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون
في الإبراء والهبة وغيره إلا إذا خلي القلب واختياره حتى تنبعث الدواعي من نفسه لا أن تضطر
بواعثه بالحيل والإلزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته لإسقاط
الزكاة فالفقيه يقول سقطت الزكاة فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي قد سقطت
عنه فقد صدق فإن مطمح نظرهما الملك الظاهر وقد زال وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون
كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجة للبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر
الزكاة فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث
مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وإنما صار شحه مطاعا بما فعله وقبل

٧٧

وقبل ذلك لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه للمال
وحرصه عليه وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل
بالجهل والغرور ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة والفقهاء المغرورون
لا يميزون بين الأماني الفضول والشهوات وبين الحاجات بل يرون كل ما لا تتم رعونتهم إلا به
حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريقه
فكل ما تناوله العبد للاستعانة على الدين والعبادة فهو حاجة وما عدا ذلك فهو فضول وشهوة
ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض التنبيه على أمثلة
تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثاني

أرباب العبادات والعمال المغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم
من غروره في تلاوة القرآن ومنهم من غروره في الحج ومنهم من غروره في الغزو ومنهم من
غروره في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فما خلوا عن غرور إلا الأكياس وقليل ما
هم فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى
خرجوا إلى العدوان كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته
في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال
قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى
الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور
احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال خوفا من الوقوع في شبهة أو حرام ثم في
هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهي عنه وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة
ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت وإن لم
تفته فهو مغرور لإسرافه في الماء وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء
فيما له مندوحة عنه إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطرق شتى ولا يقدر على صد
العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيشغلهم عن الله وفرقة غلبت عليها الوسوسة
في نية الصلاة فلا يدعها الشيطان حتى يعتقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة

ويخرج وقت الصلاة وان تمت تكبيرة فيكون في قلبه تردد في صحة نيته وقد يوسوسون في التكبير
حتى يغيروا صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في اول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة
ولا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون انهم اذا اتعبوا انفسهم في تصحيح النية في اول الصلاة
وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم وفرقة اخرى تغلب الوسوسة
عليهم في اخراج حروف الفاتحة من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد
والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى
القران والاتعاظ به وهذا من اقبح انواع الغرور فانه لم يكلف الخلق في تلاوة القران من تحقيق
مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم في الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان
وامر ان يؤديها على وجهها فاخذ الرسالة وتانق في مخارج الحروف وكررها واعادها وهو في مخارج
ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما احراه بان تقام عليه السياسة
ويرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل وفرقة اخرى اغتروا بقراءة القران
فيهذونه هذا وربما يختمونه في اليوم والليلة وربما يريد احدهم ولسانه يجري به وقلبه يتردد في اودية
الاماني اذ لا يتفكر في معاني القران ليقف عند اوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار
منه الى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب اداب تلاوة القران من مقاصد التلاوة فهو مغرور
يظن ان المقصود من انزال القران الهمهمة به مع الغفلة عنه ومثاله مثال عبد كتب اليه مالكه
كتابا واشار اليه فيه بالاوامر والنواهي فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر
على حفظه فهو مستمر على خلاف ما امره به مولاه الا انه يكرر له بنغمته وصوته كل يوم
مائة مرة فهو في ذلك مستحق للعقوبة ومهما ظن ان ذلك هو المراد منه فهو مغرور
نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل والا لكيلا
نتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقراه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه
ويظن ان ذلك مناجاة لله وسماع كلامه وانما لذته في صوته ولو ردد الحانه بشعر او
كلام اخر لالتذ به ذلك الالتذاذ فهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرفه ان لذة كلام
الله من حسن نظمه ومعانيه او لذته بطيب صوته وفرقة اغتروا بالصوم

وربما صاموا الدهر او صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون السنتهم من الغيبة وخواطرهم
من الرياء وبطونهم من الحرام والسنتهم من الهذيان بانواع الفضول طول نهارهم وهو مع ذلك منهم احرى
يظن بنفسه الخير فيهمل الواجب ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور وفرقة
اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب
الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الفرض ويضيعون الصلاة في الطريق
ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ولا يتحرجون عن الرفث والخصام وربما جمع بعضهم
الحرام وانفقه على رفقته في الطريق ويطلب به السمعة والرياء فيعصي الله بكسب الحرام اولا وفي
نفقته مرائيا ثانيا فلا هو اخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ثم يحضر بيت الله بقلب ملوث
لم يقدم تطهيره على حضوره بيت الله وهو مع ذلك يظن انه على خير وانه مقرب وهو مغرور
وفرقة اخرى اخذت في طريق الحسبة بامر الناس بالخير وينهاهم عن الشر وينسى نفسه
فان امرهم بخير عنف وطلب العز والرياسة واذا باشر منكرا ورد عليه غضب لنفسه وقد
يجمع الناس الى مجلسه ومن تاخر عنه غلظ عليه وانما غرضه الرياء والرياسة ولو تعهد ذلك المسجد
غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولو جاء غيره فاذن في غيبته لقامت
عليه القيامة وهلك وقد يتقلد امامة مسجد ويظن انه على خير وانما غرضه ان يقال انه امام
المسجد فلو تقدم غيره تغيظ عليه وان كان اورع واعلم منه وفرقة اخرى جاوروا
بمكة والمدينة فاغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا باطنهم وظاهرهم فقلوبهم
معلقة ببلادهم ملتفتة لمن وراءهم ويرى احدهم يتحدث ويقول جاورت بمكة كذا وكذا سنة
ويفرح اذا قيل عنه انه جاور بمكة فانهم ان ذكر ذلك فيبيح ترك صريح التحدث والاظهار
بتلويح حتى يعرف الناس بذلك ثم انه يجاور ويمد عين طمعه الى اوساخ الناس واذا جمع شيئا
شح عليه وامسك ولم تسمح نفسه بان يتصدق به على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة ذلك
من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة لان يقال انه من المجاورين اشغله
المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو ايضا مغرور وما من عمل من الاعمال ولا عبادة من العبادات
الا وفيها افات فمن لم يعرفها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا من جملة كتاب احياء علوم الدين
فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج والزكاة والتلاوة وسائر القربات

من الكتب التي رتبناها فيها ● وفرقة أُخرى زهدت في المال فقنعت بالدون من المطعم والمشرب
والملبس ومن المسكن بالمسجد وظنت انه ادركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة
والجاه اما بالعلم او بالوعظ او بمجرد الزهد فقد ترك اهون الامرين وباء باعظم المهلكين
فان الجاه اعظم من المال ولو ترك الجاه واخذ المال كان للسلامة اقرب فهذا مغرور اذ ظن انه من
الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر ان منتهى لذاتها الرياسة وان الراغب فيها لا بد
ان يكون منافقا وحسودا او متكبرا ومرائيا ومتصفا بخبائث الاخلاق نعم وقد يترك بعضهم
الرياسة وان الراغب ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بها على الاغنيا و
يستحقرهم ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله وهو متصف بجملة من خبائث القلوب
وهو لا يدري وربما يعطي المال فلا ياخذ خيفة ان يقال بطل زهده فهو راغب في حمد الناس وهو
من الذ ابواب الدنيا ويرى نفسه انه زاهد فهو مغرور بذلك ومع ذلك فربما يوقر الاغنيا ويقدمهم
على الفقرا ويميل الى المريدين له والمثنين عليه وربما ينفر عن المائلين لغيره وكل ذلك خدعة وغرور
من الشيطان ● وفي العباد من يشدد على نفسه في اعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة
الف ركعة مثلا ويختم القران وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب ولا تطهيره من الريا
والكبر وسائر المهلكات ولا يدري ان ذلك مهلك وان علمه بذلك فلا يظن بنفسه ذلك
وان ظنه بنفسه توهم انه مغفور له لعمله الظاهر وانه غير مواخذ باحوال القلب وان توهم ذلك فيظن
ان العبادات الظاهرة ترجح بها كفة حسناته وهيهات ذرة من ذي تقوى وخلق من اخلاق
الاكياس افضل من امثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور مع سو خلقه مع الناس
وتلوث باطنه بالكبريا وحب الثنا فاذا قيل له انت قطب الارض وولي الله وحبيبه فرح
المغرور بذلك وظن انه يجب وزاده ذلك غرورا وظن ان تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا
عند الله ولا يدري ان ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه ● وفرقة اخرى حرصت
على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض فترى احدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل ولا يجد للفريضة لذة
ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في اول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ما
تقرب الي المتقربون بمثل ادا ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من
جملة الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان احدهما يفوت والاخر لا يفوت او نفلان احدهما

يضيق وقته والاخر يتسع وقته فان لم يحفظ الترتيب كان فيه مغرورا فان المعصية ظاهرة
والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض وتقديم فرض
العين على فرض الكفاية وتقديم فرض كفاية لا قائم به على فرض كفاية قائم به غيره وتقديم
الاهم من فروض الاعيان على ما دونه وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت وهذا كما يجب
ان تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد اذ سئل صلى الله عليه وسلم فقال له رجل من ابر يا رسول الله
فقال امك ثم من قال امك قال ثم من قال امك قال ثم من قال اباك قال ثم من قال ادناك
فادناك فينبغي ان يبدا في الصلة الاقرب فالاقرب فان استويا فالاحوج فان استويا
فالاتقى والاورع وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يبدا بالحج وهو في ذلك مغرور
بل ينبغي ان يقدم حقهما على الحج وهذا من باب تقديم فرض الاهم على ما هو دونه وكذلك اذا كان
على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة والجمعة تفوت بالاشتغال بالوفا فالوفا معصية
وان كان هو طاعة في نفسه وكذلك قد يصيب ثوبه نجاسة فيغلظ القول على ابويه فالنجاسة
محذوره وايذاؤهما محذور والحذر من الاذى اهم من الحذر من النجاسة ومن ترك الترتيب في جميع
ذلك فهو مغرور وهذا غرور في غاية الغموض لان المغرور فيه في طاعة لله الا انه لا
يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي اهم منها ومن جملة ذلك
الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي
الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح وبالقلب لان مقصود الفقه معرفة ما يحتاج
اليه غيره في حوائجهم فمعرفة ما يحتاج هو اليه في قلبه اولى به الا ان حب الرياسة
والجاه ولذة المباهاة وقهر الاقران يحمل عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن انه مشتغل
بمهم دينه ● **الصنف الثالث** المتصوفة وما اغلب الغرور عليهم
والمغترون منهم فرق ● فرقة منهم متصوفة اهل هذا الزمان الا من عصمه الله اغتروا
بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم والفاظهم
وادابهم واصطلاحاتهم وفي احوالهم الظاهرة في السماع والرقص والجلوس على السجادة
واطراق الراس والتنهيق وتنفس الصعدا وفي خفض الصوت في الحديث فلما تكلفوا

بهذه الامور وتشبهوا بهم في ظاهرهم انهم ايضا صوفية ولم يتعبوا انفسهم في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من اوايل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم ان يعدوا انفسهم من الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا نفوسهم شيا منها بل يتكالبون على الحرام ومال السلطان ويتنافسون في الفلس ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم عرض بعض مهما خالفه في غرضه فهولاء غرورهم ظاهر ومثالهم كامراة عجوز سمعت ان الشجعان والابطال ثبتت اسماوهم في ديوان الجند واقطعوا الاراضي فتاقت نفسها لذلك فلبست درعا ووضعت على راسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعودت ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسر ذلك عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وتحريكهم للايدي وتلقفت جميع شمايلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى العسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت العسكر بعثت الى ديوان العرض فامر ان تجرد عنها المغفر والدرع لينظر الى صورتها وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان لتختبر بالشجاعة فلما جرد عنها المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة لا تطيق حمل السلاح فقيل لها اجيت مستهزية بالملك مستخفة باهل حضرته فالقوها قدام الفيل فقتلت فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الاكبر الذي لا ينظر لمرقعة ولا الزي بل الى سر القلب. وفرقة اخرى زادت عليهم ولا في الغرور اذ شق عليهم الاقتدا بهم في بذاذة الثياب والرضى بالدون وارادت ان تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزيي بزيهم فتركوا الخز والابريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصبوغة ولبسوا من الثياب ما هو ارفع قيمة من الحرير وظن احدهم انه متصوف بمجرد الوان الثياب المصبوغة المرقعة ونسي انهم انما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل قليل لازالة الوسخ وانما لبسوا المرقعات اذ كانت ثيابهم مخرقة وكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فاما تقطيع الفوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن اين يشبه ما اعتادوه اوليك فهولا اظهر حماقة من كافة المغرورين فانهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الاطعمة ويطلبون رغد العيش

ويأكلون اموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم يظنون بانفسهم الخير وشرهم يتعدى الى الخلق فيهلك من يقتدي بهم ومن لا يقتدي بهم يفسد عقيدته في اهل التصوف كافة ويظن ان جميعهم هكذا فيطول اللسان في الصادقين منهم وكل ذلك من شوم المتشبهين بهم. وفرقة ادعت علم المعرفة والمشاهدة ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة لعين المشهود والوصول الى القرب ولا تعرف هذه الامور الا بالاسامي الا انه تلقف من الفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن ان ذلك اعلى من علم الاولين والآخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدثين واصناف العلما والعباد بعين الازرا فضلا عن العوام حتى ان الفلاح والحايك والحجام يترك حرفته ويلازمهم اياما ويتلقف كل منهم تلك الكلمات المزيفة فهو يرددها كانه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلما فيقول في العباد هم اجرا متعوبون ويقول في العلما انهم بالحديث محجوبون ويدعي انه الواصل وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند ارباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب له خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى تلقف الهذيان وحفظه. وفرقة منهم وقعت في الاباحة فطووا بساط الشرع ورفضوا الاحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملي فلم اتعب نفسي وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلب عن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن وانما يغتر به من لم يجرب واما نحن فقد جربنا وادركنا ان ذلك محال ولم يعلم الاحمق ان الخلق لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من اصلهما انما كلفوا تهذيبهما وتاديبهما بحيث ينقادان لحكم الشرع والعقل وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لا وزن لها وانما النظر للقلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفته وانما نخوض في الدنيا بابداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظاهر لا بالقلوب ويزعمون انهم ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وان الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم عليها ويرفعون درجتهم عن درجة الانبيا اذ كانوا يبكون من خطية واحدة وينوحون سنين متوالية واصناف غرور اهل الاباحة

من منتهى الصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على اغاليط ووساوس خدعهم بها الشيطان لاشتغالهم
بالمجاهدة قبل احكام العلم ومن غير اقتدا بشيخ متقن في الدين مسلك للطريق صالح للاقتدا به
وفرقة جاوزت حد هؤلا واجتنبت الاعمال وطلبت الحلال وتفقدت قلبها وصارت
تدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب لله من غير وقوف على حقيقة هذه
المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعي الوجد والحب لله ويزعم انه
واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة او كفر فيدعي حب الله قبل
معرفته ثم انه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله وعن ايثار هواه على امر الله وعن ترك
بعض الامور حيا من الناس ولو خلا لما تركه حيا من الله وبعضهم ربما يميل الى القناعة
والتوكل فيخوض في البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وما يعلم ان ذلك بدعة
لم ينقل عن السلف والصحابة كانوا اعرف بالتوكل منه فما فهموا ان التوكل المخاطرة بالروح
وترك الزاد بل كانوا ياخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد وهذا ربما يترك
الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام من المقامات المنجيات
الا وفيه غرور يغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الغرور والآفات في ربع المنجيات
وفرقة اخرى ضيقت على نفسها في القوت حتى طلبت الحلال المحض واهملت
تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من اهمل الحلال في مطعمه
وملبسه ومسكنه واخذ يتعمق في غير ذلك ولم يدر المسكين ان الله لم يرض من عبده
بطلب الحلال فقط ولا رضي بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد
جميع الطاعات فمن ظن ان بعض هذه الامور تنجيه فهو مغرور وفرقة اخرى
منهم ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا
لخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون
التواضع بالخدمة وغرضهم الارتفاع ويظهرون ان غرضهم الرفق وغرضهم الاستتباع
للاتباع ثم يجمعون الحرام والشبهة وينفقون عليهم ليكثر جمعهم فيستجلبون
به اموال السلاطين والامرا فينفقون بعضه على اتباعهم ويكنزون بعضه وبعضهم
ياخذها لينفقها

وبعضهم ياخذها لينفقها في الحج على الصوفية ويزعم ان غرضه البر والارفاق وباعث
جميعهم السمعة والريا وآية ذلك اهمالهم اوامر الله ظاهرا وباطنا ورضاهم باخذ الحرام
والانفاق منه ومثال من ياخذ المال الحرام وينفقه في طريق الحج كمن يعمر مساجد الله ويطينها
بالعذرة وفرقة اخرى منهم اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير
النفس ويتعمقون في ذلك فاتخذوا البحث عن عيوب النفس وخدعها حرفة فهم في جميع
احوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس وباستنباط دقائق الكلام في آفاتها فيقولون
هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات الى كونه عيبا عيب ويأتون
في ذلك بكلمات مسلسلة ومن جعل عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علاجها
كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا
يغنيه وفرقة جاوزوا هذه الرتبة وابتدوا سلوك الطريق وانفتحت لهم ابواب
المعرفة فكلما تشمموا من مبادي المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وتقيدوا قلوبهم
بالالتفات اليها والتفكر في كيفية انفتاح بابها عليهم وانسدادها على غيرهم فكل
ذلك غرور لان عجائب طريق الله ليس لها نهاية فلو وقف السالك مع كل اعجوبة
وتقيد بها لقصرت خطاه وحرم الوصول الى المقصد ومثاله مثال من قصد ملكا فراى على باب
ميدانه روضة انيقة فيها ازهار وانهار تجري وطيور تغرد فوقف ينظر اليها
ويتنزه فيها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقا الملك وفرقة جاوزوا
هؤلا ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق والى ما تيسر لهم من
العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين في المسير حتى
قاربوا حد القربة الى الله فظنوا انهم وصلوا اليه فوقفوا وغلطوا فان لله سبعين
حجابا من نور لا يصل السالك الى حجاب منها في الطريق الا ويظن انه قد وصل
واليه الاشارة بما اخبر الله عن ابراهيم عليه السلم بقوله فلما جن عليه الليل راى
كوكبا قال هذا ربي وليس المعني به هذه الاجسام المضية فانه كان يراها في الصغر
ويعلم انها ليست آلهة وهي كثيرة ليست واحدا والجهال يعلمون ويتحققون ان الكوكب

ليس بالهين فمثال ابراهيم ما يعلم ذلك وابعد ان يظن الكوكب الذي لا يعرف الشيء الاها ولكن المراد
به نور من الانوار التي هي من حجب الله وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله الا
بالوصول الى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها اعظم من بعض واصغر النيرات الكوكب فاستعير
له لفظه واعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل ابراهيم عليه السلام لما ارا ملكوت السموات
يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه في اول ما يلقاه انه قد وصل ثم كان ينكشف له ان وراءه
امر فيترقى اليه ويقول قد وصلت فينكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي
لا وصول الى الحضرة الا بعده فقال هذا اكبر فلما ظهر له انه مع عظمه غير خال عن الهوي في
حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال اني بري مما تشركون اني وجهت وجهي
للذي فطر السموات والارض حنيفا الاية وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف ببعض
هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول واول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فانها
ايضا امر رباني وهو نور من انوار الله اعني سر القلب الذي يتجلى فيه حقيقة الحق كله
حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ويتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره اشراقا
عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في اول الامر محجوب بمشكاة هي كالساتر
له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب
القلب الى القلب فيرى من جمال صورته الفائق ما يدهشه فربما يسبق لسانه في هذه الدهشة
فيقول انا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر
بكوكب صغير من انوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا
محل الالتباس اذ المتجلي يلتبس بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المراة بالمراة
فيظن انه لون المراة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل رق الزجاج
ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الامر فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر وبهذه
العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا اشراق نور الله قد تلالا عليه فغلطوا فيه كمن راى كوكبا
في مراة فظن ان الكوكب في المراة فمد يده اليه لياخذه فهو مغرور وانواع الغرور في طريق
السلوك الى الله لا تحصى ولا تستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك

مما لا رخصة في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه كان الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق
لا يحتاج الى ان يسمعه من غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورث
ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم ولكن فيه فائدة وهو اخراجه من الغرور الذي
هو فيه او ربما يصدق بان الامر اعظم مما يظنه ويتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر
وجدله المزخرف ويصدق ايضا بما يحكى من المكاشفات التي اخبر بها اولياء الله عنها ومن عظم
غروره ربما اصر مكذبا بما يسمعه الان كما يكذب بما سمعه من قبل الصنف
الرابع ارباب الاموال والمغترون منهم فرق كثيرة ففرقة منهم يحرصون على بنا المساجد
والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون اساميهم عليها
بالاجر ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت اثرهم وهم يظنون انهم قد غفر لهم بذلك
وقد اغتروا فيه من وجهين احدهما انهم يبنونها من مال اكتسبوه من الظلم والرشا
والجهات والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وفي انفاقها وكان
الواجب عليهم الامتناع من كسبها فاذ قد عصوا الله بكسبها كان الواجب عليهم
التوبة وردها الى اربابها اما باعيانها او برد بدلها عند العجز عن اعيانها فان عجزت
اربابها فالواجب ردها للورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها في اهم
المصالح وربما يكون الاهم دفعها للمساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة ان لا يظهر
ذلك للناس فيبنون الابنية وغرضهم الريا وجلب الثنا وبقا ذكرهم لا قصد
الخير والوجه الثاني انهم يظنون بانفسهم الاخلاص وقصد الخير
في الانفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم نفقة دينار ولا يكتب اسمه على الموضع
الذي انفق عليه لشق عليه ذلك والله مطلع عليه كتب اسمه او لا فلولا انه يريد
وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك وفرقة ربما اكتسبت المال
من الحلال وانفقته في المساجد وهي ايضا مغرورة من وجهين احدهما الريا وطلب
الثنا فانه ربما يكون في جواره او بلده فقرا وصرف المال اليهم اهم من صرفه الى المسجد
لكن يخف عليه صرفه للمسجد ليظهر ذلك بين الناس والثاني انه يصرفه لزخرفة

المسجد وتزيينه بالنقوش وهو منهي عنها لانها شاغلة قلوب المصلين ومختطفة عيونهم والمقصود
من الصلاة الخشوع وحضور القلب والنقوش والزخرفة تصرف القلوب عن ذلك ووبال ذلك
كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى انه من الخيرات ويعتده وسيلة له وهو به قد
تعرض لسخط الله وشوش قلوب عباده بما زخرف من المساجد وربما شوقهم به الى زخارف
الدنيا فيشتهون مثله في بيوتهم والمسجد انما وضع للتواضع وحضور القلب مع الله تعالى قال
مالك بن دينار رضي الله عنه اتى رجلان مسجدا فوقف احدهما بالباب وقال مثلي لا يدخل بيت الله
فكتبه عند الله صديقا فبهذا ينبغي ان يعظم المسجد وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر الى
هذا المسجد ما احسنه فقال امتي بحق اقول لكم لا يترك الله لحجر من هذا المسجد حجرا على حجر
الا اهلكه بذنوب اهله ان الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم
شيئا وان احب الاشياء الى الله القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها يخرب اذا كانت
على غير ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم
فالدمار عليكم ولما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبني مسجدا بالمدينة اتاه جبريل عليه
السلام فقال ابنه سبعة اذرع طولا في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه فغرور هذا من حيث
انه رأى المنكر معروفا واتكل عليه وفرقة اخرى ينفقون المال في الصدقات
على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وافشاء
المعروف ويكرهون الصدقة في السر ويرون كتمان الفقير الذي اخذ منهم كفرانا منه
وجناية عليهم وربما يحرصون على انفاقه في الحج فيحجون مرة بعد اخرى وربما تركوا
جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب
يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق فيرجعون محرومين مسلوبين يهوي باحدهم
بعيره بين القفار والرمال وجاره ماسور في جنبه لا يواسيه وجاء رجل يودع بشر
الحافي رضي الله عنه وقال قد عزمت على الحج فتامرني بشيء فقال له كم اعددت للنفقة فقال الفي
درهم فقال بشر فاي شيء تبتغي بحجك نزهة ام اشتياقا الى البيت ام ابتغاء وجه الله
قال وجه الله قال فان اصبت رضى الله وانت في منزلك وتنفق الفي درهم وتكون
على

في بنا المساجد
بليغ

على يقين من مرضاة الله افتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة انفس مديون يقضي دينه
وفقير يلم شعثه ومعيل يغني عياله ويتيم تفرحه وان قوي قلبك تعطيها واحدا فان ادخالك
السرور على قلب مسلم واغاثة ملهوف وكشف ضر واعانة ضعيف افضل من مائة حجة بعد الفرض
قم فاخرجها كما امرناك والا فقل ما في قلبك قال يا ابا نصر سفري اقوى في قلبي فتبسم بشر وقال له اذا
جمع المال من وسخ التجارة والشبهة اقتضت النفس ان تقضي به وطرا فاظهرت الاعمال الصالحات وقد
آلى الله على نفسه ان لا يقبل الا عمل المتقين وفرقة اخرى يحفظون الاموال و
يمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار و
قيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى عليهم فهو يحتاج الى قمعه
باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد
اشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج
الى السكنجبين ولذلك قيل لبشر ان فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله
ودخل في حال غيره انما حال الغني اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا افضل له
من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء وفرقة اخرى
غلبهم البخل فلا تسمح انفسهم الا باداء الزكاة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الردي الذي يرغبون
عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم او من يحتاجون اليه في
المستقبل او من لهم فيه غرض او يسلمونها الى من يعين به واحد من الاكابر لينال
بها عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسد للنية ومحبط للعمل وصاحبه مغرور يظن
انه مطيع وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا من غرور ارباب الاموال ايضا
وفرقة اخرى من عوام الخلق ارباب الاموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الوعظ
واعتقدوا ان ذلك يكفيهم فاتخذوا ذلك عادة ويظنون ان لهم على مجرد سماع الوعظ دون
العمل اجرا وهم بذلك مغرورون لان فضل مجلس الذكر كثير لكونه مرغبا في الخير فان لم
يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على
العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الى ذلك الغير فلا قيمة له وربما

يغتر بما يسمعه من الوعظ في عقد حضور المجالس وفضل البكاء فيبكي وربما يصيح كالها يحق فيصفق
بيديه ويقول بلسانه يا سلام سبحان الله نعوذ بالله فيظن انه قد جاء بكل الخير وهو مغرور ومثاله كالمريض
يحضر مجالس الاطبا فيسمع ما يجري او الجائع يحضر عند من يصف له الاطعمة اللذيذة فينصرف
عنه وذلك لا يغني عنه شيا وكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله
شيا فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير افعاله حتى تقبل على الله وتعرض عن الدنيا
فذلك الوعظ حجة عليك فان رايته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فما ذكرته من مداخل
الغرور امر لا يتخلص منه احد ولا يمكن الاحتراز عنه وهذا يوجب الياس اذ لا يقدر
احد على الحذر من خفايا هذه الافات فاقول الانسان اذا افترت همته في شي اظهر الياس
واستعظم الامر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى للحيل واستنبط بدقيق
النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى ان الانسان اراد ان يستنزل الطير المحلق في
جو السما فاستنزله واراد ان يستصعد الحوت من اعماق البحار فاستصعده واراد ان
يقتنص الوحوش المطلقة في الصحاري فاقتنصها واراد ان ياخذ الافاعي والحيات فاخذها
واستخرج الترياق من اجوافها واراد ان يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت
فاتخذه واراد ان يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها بطريق الهندسة فاستخرجها
وهو مستقر بالارض كل ذلك باستنباط الحيل واعداد الالات فسخر الفرس للركوب والكلب
للصيد والبازي لاقتناص الطيور الى غير ذلك من دقائق حيل الادمي وكل ذلك لانه همه
امر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو اهمه امر اخرته فليس عليه الا عمل واحد وهو تقويم
قلبه فعجز عن تقويمه وتخاذل وقال هذا محال من الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال فلو اصبح
وهمه هذا الهم الواحد كان كما قال ؛ لو صح منك الهوى ارشدت للحيل ؛ شعر
فهذا شي لم يعجز عنه السلف ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه ايضا من صدقت ارادته
بل لا يحتاج الى عشر من تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا فان قلت فقد قربت الامر فيه بعد
ان اكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم انه ينجو منه بثلاثة امور
لا بد منها بالعقل والعلم والمعرفة اما العقل فاعني به الفطرة الغريزية والنور الاصلي

الذي به يدرك الانسان حقائق الاشيا فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة
فالبليد لا يقدر على التحفظ من الغرور فصفا العقل وذكا الفهم لا بد منه في اصل الفطرة فهذا
ان لم يفطر عليه الانسان فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل اصله امكن تقويته بالممارسة
فاساس السعادات كلها العقل والكياسة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الله الذي قسم
العقل بين عباده اشتاتا ان الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما
يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب احد وما قسم الله لخلقه حظا هو افضل من العقل واليقين بيان العقل
وعن ابي الدردا رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله ارايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج
ويعتمر ويتصدق ويغزو ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ما يعلم منزلته
عند الله يوم القيامة فقال صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله واثني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف عقله قالوا يا رسول الله نقول من عبادته وفضله
وخلقه قال كيف عقله فان الاحمق يصيب بحمقه اعظم من فجور الفاجر وانما يتقرب الناس على قدر
عقولهم ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن رجل شدة عبادة ؛ سال عن عقله فاذا قالوا
حسن قال ارجوه وان قالوا غير ذلك قال لن يبلغ ؛ قال وذكر له شدة عبادة رجل فقال
كيف عقله قالوا ليس بشي فقال لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالذكا وصحة غريزة
العقل نعمة من الله في اصل الفطرة فان فاتت بولادة وجها فيه فلا تدارك لها ؛ الثاني
المعرفة واعني بها ان يعرف اربعة امور نفسه وربه والدنيا والاخرة فيعرف نفسه بالعبودية
والذل وبكونه غريبا في هذا العالم واجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانما الموافق له
طبعا هو معرفة الله والنظر الى وجهه ولا يتصور ان يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف
ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وكتاب شرح عجائب القلب وكتاب
الشكر اذ فيهم اشارات الى وصف النفس ووصف جلال الله ويحصل به التنبه على الجملة
وكمال المعرفة ورا ذلك فان ذلك من علوم المكاشفة ولم نطنب في هذا الكتاب الا في
علوم المعاملة ؛ واما معرفة الدنيا والاخرة فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا
وكتاب ذكر الموت ليتبين له ان لا نسبة للدنيا الى الاخرة فاذا عرف نفسه وربه وعرف

الدنيا والاخرة ثار من قلبه بمعرفة الذي داب الله … الاخرة تشتاق الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا
الرغبة عنها فيصير اهم اموره ما هو وسيلة الى الله ومنفعة في الاخرة فاذا غلبت هذه الارادة على قلبه
صحت نيته في الامور كلها فان اكل او تخلى او اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على قطع
سلوك الاخرة وطريق … كل محذور وكل غرور منشاؤه تجاذب الاغراض النزوع
للدنيا والجاه والمال فان ذلك هو المفسد للنية وما دامت الدنيا احب اليه من الاخرة وهوى نفسه
احب اليه من رضى ربه ما يمكنه الخلاص من الغرور فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبمعرفته
الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم بكيفية سلوك الطريق الى الله والعلم
بما يقربه الى الله وبما يبعده عنه والعلم بافات الطريق وعوائقه وجميع ذلك قد اودعناه كتب
احياء علوم الدين فيعرف من ربع العبادات شروط العبادات فيراعيها ويحذر افاتها ومن
ربع العادات اسرار المعايش وما هو مضطر اليه فياخذه باداب الشرع وما هو مستغن
عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعلم جميع الصفات المانعة من طريق الله فان المانع
من الله هي الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعلم من ربع المنجيات
الصفات المحمودة التي لا بد وان توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا احاط بجميع ذلك
امكنه الحذر من انواع الغرور التي بيناها واصل ذلك كله ان يغلب حب الله على القلب ويسقط
حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة التي ذكرناها
فان قلت فاذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه فاقول يخاف عليه ان يخدعه الشيطان
ويدعوه لنصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس الى ما عرفه لله من دينه فان المريد المخلص
اذا فرغ من تهذيب الاخلاق ومراقبة القلب حتى صفا من الكدورات واستوى على الصراط
المستقيم وصغرت الدنيا في عينه وتركها وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق له الا
هم واحد وهو الله سبحانه والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق اليه وقد عجز الشيطان عن
اغوائه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطمع فيأتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة
على الخلق والشفقة على دينهم بالنصح لهم والدعاء الى الله فينظر العبد بعين الرحمة الى عبيده من
العبيد فيراهم حيارى في امرهم سكارى في دينهم صما بكما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا

يشعرون وقد فقدوا الطبيب واشرفوا على الهلاك فيغلب عليه الرحمة لهم وعنده حقيقة
المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب
فكان مثله كرجل به داء عظيم لا يطاق المه يسهر ليله … نهاره لا ياكل ولا يشرب ولا
يتحرك لشدة ضربان الالم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن … فاستعمله
فبرئ وطاب نومه وهدى بالنهار وراحة بعد طول السقم ثم نظر الى عدد كثير
من المسلمين واذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع انينهم فتذكر
ان دواءهم هو الذي يعرفه وانه قادر على شفائهم بايسر ما يكون فاخذته الرحمة والرأفة
فلم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد ان اهتدى
الى الطريق وشفي من مرض القلب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم واعضل داؤهم وقرب
هلاكهم وشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم
وحرضه الشيطان على ذلك رجاء ان يجد مجالا للفتنة فلما اشتغل به وجد الشيطان الفتنة
مثلا فدعاه الى الرياسة دعاء خفيا اخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك
الدبيب في قلبه حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات كانت
والتصنع في الزي والهيئات فاقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه اعظم من الملوك اذ
راوه شافيا لدائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار احب اليهم من ابائهم وابنائهم بهم
فاثروه بانفسهم واموالهم وصاروا له كالخدم والعبيد يخدمونه ويقدمونه في المحافل ويحكمونه
على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع للطمع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها
من لذة واصابت شهوة من الدنيا يستحقر معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوقع في
اعظم لذاتها فعند ذلك وجد الشيطان فرصته وامتدت لقلبه يده فهو يستعمله في
كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وامارة انتشار الطبع وركون النفس للشيطان انه لو اخطأ في رد
عليه من الخلق غضب فاذا انكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل
اليه ان ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله
فوقعوا في الغرور … اخرجه ذلك الى الوقيعة فيمن رد عليه فيقع في الغيبة المحظورة

بعد تنكره للجلال المنشح ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق بعد أن كان يحذر من طوار
الخطرات وكذلك اذا استقبحه النصح او فتر عن بعض الاوراد جزعت النفس ان يطلع عليه
فيسقط قبوله فيتبع ذلك باستغفار وتنفس صعداء وربما زاد في الاوراد لاجلهم والشيطان
يخيل اليه انك انما تفعل هذا لئلا يفتروا عن طريق الله [illegible] عن الطريق [illegible] ابائها وهذه
خدعة من الشيطان وغرور بل هو خدع من النفس خفية من غوائل الرياسة ولذلك لا تخدع
نفسه من الاطلاع على مثل ذلك من اقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من اقرانه
من مال القلوب الى قبوله اكثر منه لشق عليه ولولا ان النفس استلذت الرياسة لكان
يغتنم ذلك ويفرح به اذ مثاله من حاجة جماعة من اخوانه وقعوا في بئر وغطى راس
البئر بحجر عظيم فعجزوا عن الترقي من البئر فرق عليه لاخوانه فجاء ليرفع الحجر فشق عليه فجا
من اعانه على ذلك حتى تيسر رفعه او كفاه ذلك ورفعه بنفسه فكان سبيله
ان يعظم بذلك فرحه اذ غرضه خلاص اخوانه من البئر فان كان غرض الناصح خلاص
اخوانه من النار فاذا ظهر من اعانه وكفاه ذلك لم يثقل عليه اذ كان غرضه هدايتهم
فاذا اهتدوا بانفسهم او بغيره فلم يثقل عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان
الى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح واهلكه نعوذ بالله من زيغ القلوب بعد
الاهتداء ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء فان قلت فمتى يصح له ان يشتغل بنصح
الخلق فاقول اذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه
او لو اهتدوا بانفسهم وانقطع طمعه بالكلية من ثنائهم ومالهم فاستوى عنده حمدهم
وذمهم فلم يبال بذمهم اذا حمده الله ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترن به حمد الله ونظر
اليهم كما ينظر الى السادات والى البهائم اما الى السادات فمن حيث لا يتكبر عليهم ويرى
كلهم خيرا من نفسه لجهله بالخاتمة واما الى البهائم فمن حيث ينقطع طمعه عن طلب
المنزلة عندهم فانه لا يبالي منها ولا يتزين لها بل راعي الماشية غرضه رعايتها ودفع
الذيب عنها دون نظر الماشية اليه فمتى لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت
لنظرها ولا يبالي بها لا تسلم من الاشتغال باصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه وهو

باصلاحهم فيكون كالشمع يضيء لغيره ويحترق في نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ
الا عند [illegible] الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب فاقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حب الدنيا راس كل خطيئة ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطل المعايش وهلكت القلوب
والابدان جميعا الا انه صلى الله [عليه وسلم] علم ان حب الدنيا مهلك وان ذكر كونه مهلكا
لا ينزع الحب من قلوب الاكثرين الا الاقلين الذين لا يخرب الدنيا بتركهم لها فلم يترك
النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من ان يترك ثقة بالشهوات
المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها الى جهنم تصديقا لقوله تعالى ولكن حق
القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين فكذلك لا تزال السنة الوعاظ مطلقة
بحب الرياسة ولا يدعونها لقول من يقول ان الوعظ لحب الرياسة حرام كما لم يدع الخلق
الشرب والزنا والسرقة وسائر المعاصي لقول الله ورسوله ان ذلك حرام فانظر لنفسك
وكن فارغ القلب من حديثك فان لله سبحانه خلقا كثيرا يا فساد [illegible] واشخاص ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر و
باقوام لا خلاق لهم فانما تخشى ان تنبسط عليك الانعاظ فاما تجنس السنة الوعاظ دوارا
باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك ابدا فان قلت فان علم المريد هذه
المكايد من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح او نصح وراعى شروط الصدق
والاخلاص فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الاغترار فاعلم انه قد بقي
عليه اعظمها وهو ان الشيطان يقول له اعجزتني [illegible] افلت من يدي بذكائك
وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الاولياء وما قدرت عليك فما اعظم محلك عند الله
اذ قواك على قهري [illegible] من التفطن لجميع مداخل غروري فيصغي اليه ويصدقه
ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله فيكون اصغاؤه اليه وتصديقه له واعجابه
بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الاكبر فالعجب اعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان
يا ابن ادم اذا ظننت انك بعلمك خلصت مني فبجهلك وقعت في حبائلي فان قلت
فلو لم يعجب بنفسه اذ علم ان ذلك [illegible] لا منه وان مثله لا يقوى على دفع الشيطان

الا [illegible] لله تعالى [illegible] بضعف [illegible] وعجزه عن اداء الفرائض
[illegible] الذي [illegible] عليه [illegible] بدل الله تعالى [illegible]
على [illegible] فاقول [illegible] رضي الله عنه [illegible]
[illegible] رحمه الله [illegible] مستقبل [illegible]
لا [illegible] على [illegible] تعالى [illegible] دون ان
[illegible] من ذكر الله [illegible] خذ ابا طريقة ان يكون [illegible]
ذلك [illegible] الله تعالى [illegible] ان يكون قد تشدد [illegible]
قلبه [illegible] وهو قادر [illegible]
نبيك حالة [illegible] عنه [illegible] ولا عاقا عن
[illegible] محضر [illegible] همة الا بعد تجاوز [illegible]
الشيطان لبعض [illegible] في وقت النزع وقد نفي لم تقش على صاحبه
باول [illegible] غيره ولذلك قيل الناس كلهم هلكى الا
العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون
والمخلصون على خطر عظيم فاذا المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور
[illegible] الخوف والحذر فلذلك للاوليا ابدا [illegible] فنسال الله الكريم
بفضله [illegible] فان الامور بخواتيمها [illegible] تم كتاب
ذم الغرور وهو اخر الكتب العشرة من ربع المهلكات [illegible]
اربعة ارباع من كتاب احيا علوم الدين [illegible] الاخره [illegible]
[illegible] الجزء الخامس كتاب [illegible] المنجيات
وهو الربع الرابع من كتاب الاحيا والحمد لله [illegible] فرغ من نسخه [illegible]
[illegible] الفقير الى [illegible] الشافعي
[illegible] ولجميع المسلمين [illegible]

Copyright @ King Saud University